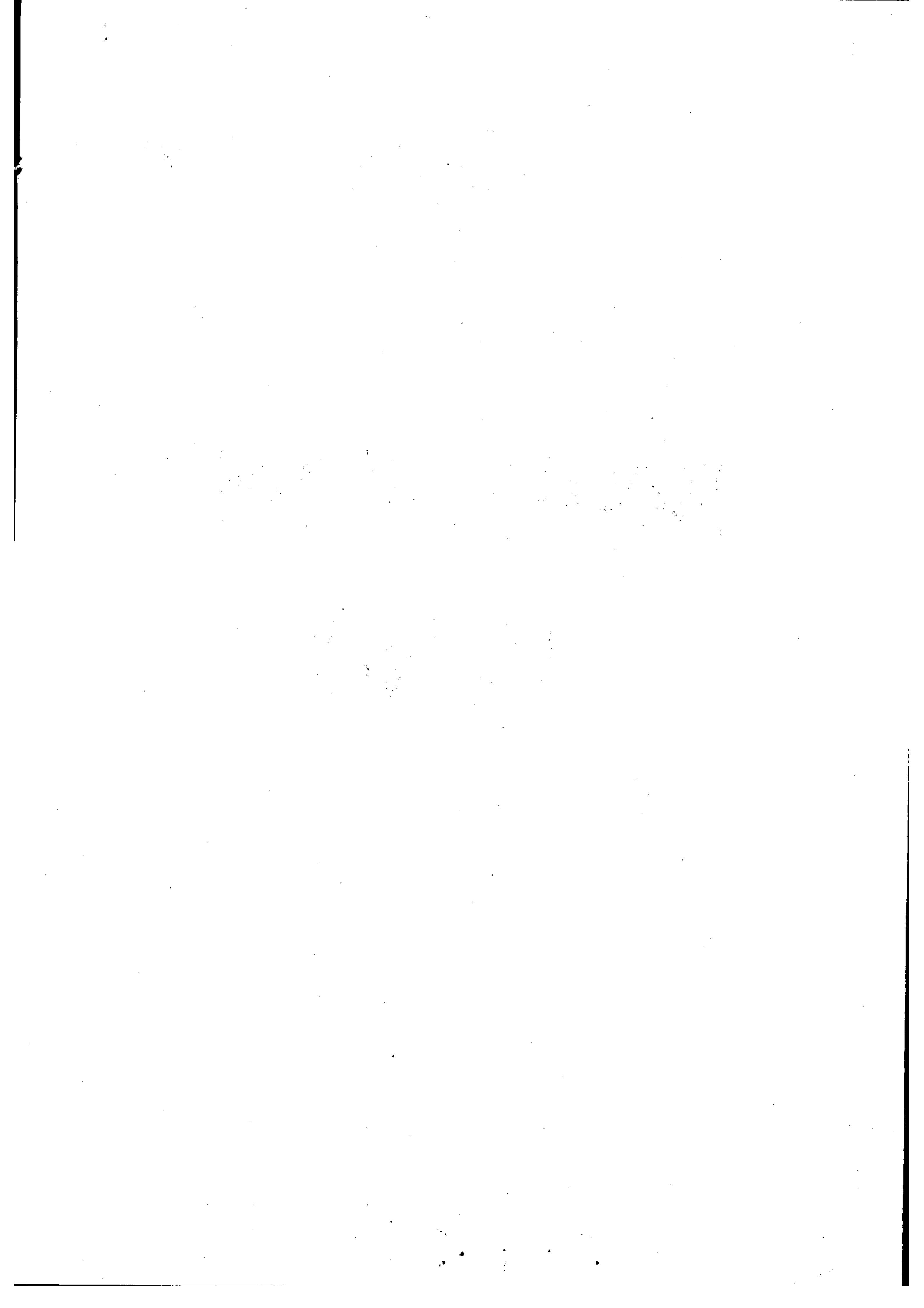
على ابو المكارم

أشجان العاشق

(رواية)



أشجـان العـاشـق

رواية

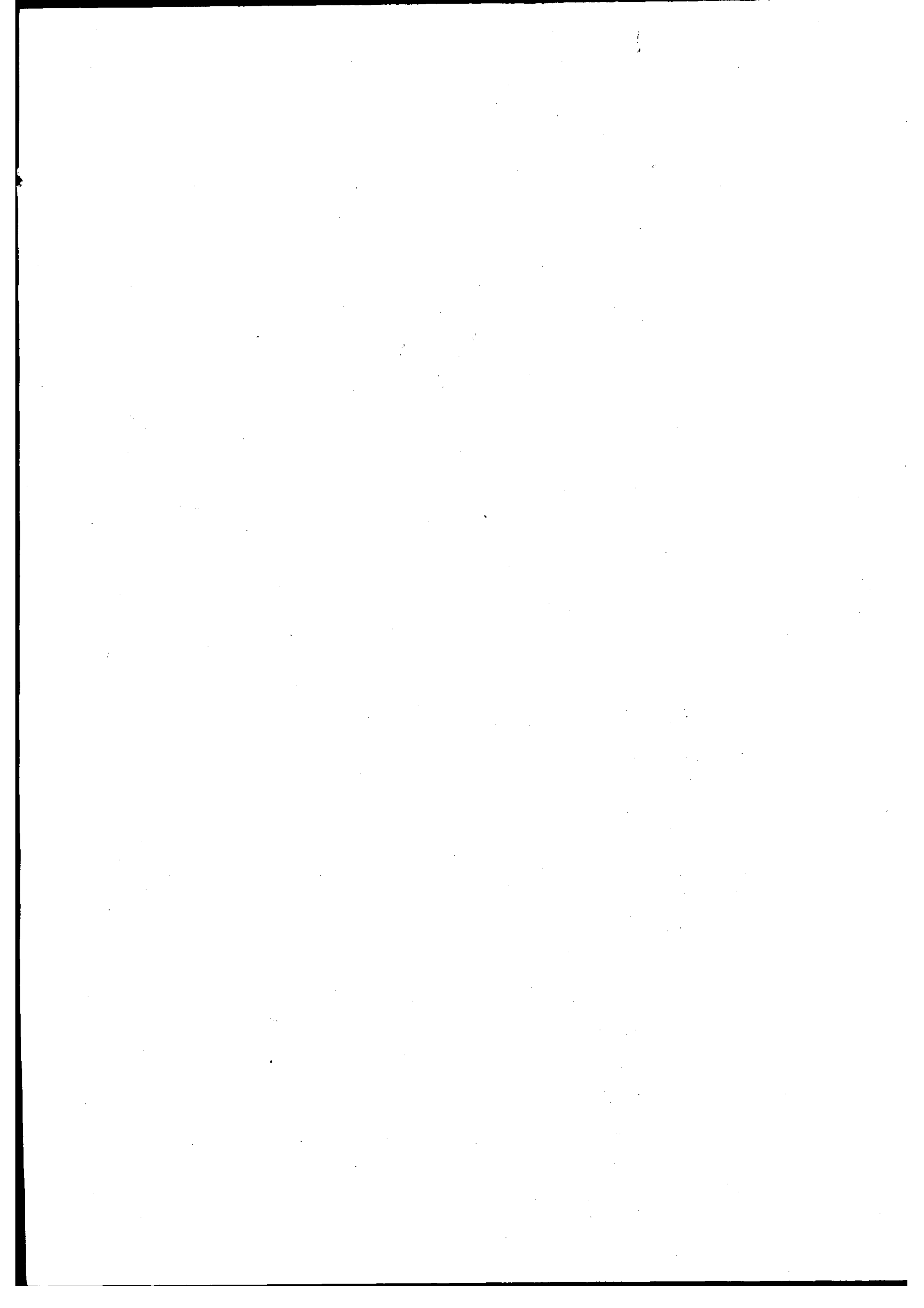
- العنوان	أشجان العاشق
- المؤلف	على أبو المكارم
- الطبعة	الأولى
- السنة	٢٠٠٢ - ٢٠٠٣
- تصميم الغلاف	الرسام / عمرو عكاشة
- رقم الإيداع	١٤١٣٢ / ٢٠٠٢
- الناشر	دار الهانى للطباعة ٤٤٤٢٠٥٥

الإهـــداء

إلى حبيبتى

غيرى على السلوان قـــادر





في البدء كان الكلمة

- ١ -

من نقش جدارى في المعـــرض الدائــم لمركــز الزراعــة التاريخى في هيروشيما البصرة عن " احتراق اللوحة الحجريـــة" لفيكاى الكبير :

تخرج من بؤبؤ عين جرادتها أمواج الصمت ، تحرث أرض مداتنها ألسنة الدهشة ، يذوب دخان حرائقها في كـــاس حبلـــى ، يسيل فوق سحائبها شعاع أسود ، يتتابع ، بتجمـــع ، يمـــلأ قـــاع حدائقها بالأمواج ، تغرس وهنا ألحانا حمراء ، تغرق قسرا عفـــن الأشجار الحجرية ، تأكل كفا ذهبية ، تحرق قلب النســر المختـــال بمخالب فضية ، تسحق صمت الكون .

- ٢ -

الرواية غير النص . هكذا قال زرادشت فيتنام .

الرواية بمولود تبدأ ، هى به لا تتوقـــف ، المولـــود برغـــم ولادته لا يكتمل ، تظل تغذوه المراضع . النص الأول فعل ، قـــد يصبح حـــرفا ، أو اسما ، أو حتى جملة في بحر ميت ، الروايـــة عمل يتحرك ، يتولد ، يتجدد . يتمدد ، يغير ، يتغـــير . فليكتـــب كاتبهم ما شـــاء بكل الأقلام الضوئيـــة ، وليتوجـــع ، وليجـــزع ، وليفزع، وليبك ، وليصرخ ، فالوليد برغمه تظل تغذوه المراضع .

- ٣ -

جيفارا قال: على المبدع فعلا أن يعزف، قد آن أوان السرد ٠

قطعا هـو آت ، رأيته في هدأة المـوت يغنـى فـي عيـن الإعصـار ، يخرج منها عملاقا يتحدر ، شبابا يتفجـر ، يقبـل يتكلم ، يتعلم ، يكمل الحرف الناقص ، يصحـح لفـظ الجملـة ، يمنحها المعنى الكامل ، يزيل ضباب الصـورة بضربـة رأس ذات أصابع بشرية ٠

- ٤ -

في وصية الحكيم لقمان : أبدا لا تشرك ، تظلـم نفسـك إذ تشرك ، كذب المشرك ٠

ما زال الراوى يتكلم ، سيبقى يتكلم ، قد يتأثر ، قد يتعـثر ، قد يتلعثم ، قد يتألم ، قد ينزف قطرات من دم ، قد لا يفهم ، لكـن يكفى أن يتكلم ٠

حتما يكتمل النص ٠

* *

- ١ -

- الحزام لو سمحت ٠

رفع عينيه التقت بعينيها ٠ "نظرة مهنية ميتة تخلو من أى تعبير ، هل يوجد إنسان ما في مكان ما في لحظة ما يستطيع أن يشعل جذوتها ؟ هذا إذا كانت في الأعماق جذوة ، مثل هذا النموذج حتى في اللحظات الحميمة موعود الإحساس ، يتناول طعامه ونفس النظرة في عينيه لا تبرح ، بدأت تمارس حيلتك القديمة ، لبانتك المعهودة ، الرقيع أبو لبانة يمضغ الكلمات خلف الميكروفون وهو يدعو إلى الصمود من أجل البنات ، حرب البنات لها ساحة واحدة تحدد أبعادها أشعاره واختياراته ٠ ومع ذلك لست أفضل منه ، تحددت هويته وانطلق مهما كان التقزز الذي يثيره حوله ، أما أنت فما هي هويتك ، هل أنت حالم يتطلع إلى بداية جديدة ، أيّ بداية وقد مال الميزان وأوشكت الشمس أن تغيب ، لا تنكر قلقك ، واجه نفسك من جديد ، هل واجهت نفسك فعلا حين اتخذت قرارك بالعودة ، هل استطعت فعلاً أن تحيط بكل الاحتمالات ، هل أنت جاهز لتقبل أسوأ النتائج ، مجرد لحظات قصيرة

ويشرعون في ممارسة طقوسهم السخيفة ، أغمض عينيك ، عيناهما المتوسلتان تسحان دمعا صامتا لكنّ ضجيجه يدوى في النخاع ، قوة الضعف توشك أن تجتاحك ، حذار من أن تتبدد قوتك في سراديب المشاعر الغامضة ، ألجم مشاعرك ، قوة الضعف تكمن في ضعف القوة ، لا تقلق عليها ، التعود على البعد كالتعود على القرب ، الإنسان مجرد حيوان أليف ، دعك من كل التعريفات المنطقية والتحديدات الفلسفية ، الحقيقة السلوكية الوحيدة هي أن الإنسان حيوان تحكمه الألفة ، هل بدأت تخرّف ، هل تتعمد هذه التهويمات ، إذا لم تكن تتعمد ذلك فاستيقظ ، قدراتك العقلية في خطر ، من أين الأحكام القاطعة فيما مضى وفيما هوآت ، ما بين يديك مجرد مؤشرات لا أكثر . المستقبل مرهون بأشياء ليست تحت سيطرتك ، هل في الحقيقة شيئ تحت السيطرة ، بالتأكيد ، أنت الآن تحت سيطرة قائد الطائرة ، لا تغالط ، هذا مجرد جزء صغير من الحقيقة ، فهو بدوره تحت سيطرة الأجهزة الفنية ، وهي تحت سيطرة الظروف الملاحية ، وهي تحت سيطرة العواصف الشمسية ، والشمس تحت سيطرة الجاذبية الكونية ، والجاذبية الكونية تحت سيطرة ما لايحصى من القوى ، كل شيئ تحت سيطرة شيئ آخر وخارج سيطرة شيئ آخر ، سيان ، لا ترهق نفسك - ليس هناك فرق ، ليس لك إلا الساعة التى أنت فيها ، لكن هل هذه الساعة لك فعلا أو هي عليك ، هل تتحرك معها أو ضدها ، معك أو ضدك هل تستطيع القطع بأنك تمضي في الاتجاه الصحيح ، هل يستطيع أحد أن يقطع بصحة اتجاه ، هل يستطيع أحد أن يقطع بالاتجاه نفسه ، في الظلمات لا يستطيع أحد التمييز بين اتجاه وآخر ، من الممكن أن يصبح اليسار يمينا واليمين يسارا ، كل شيئ ممكن ما دامت ليست هناك ثوابت ، آه لو عادت تلك الأيام ، هل تتمنى الأيام الخوالى التى كانت تحمل المقدرة على التفسير وإصدار الأحكام وأنت تسير في عكس الاتجاه ، الثوابت حركة التاريخ الصاعدة إلى الأمام ، لكنها الآن تهبط متجهة إلى الخلف ، أليس من الممكن أن تكون حركة دائرية

مركبة لا تراوح مكانها ٠ من العيون الباكية إلى العيون الدامية ، هل الـــذى يفصل بينها في الحقيقة عشرون عاما أو هى لحظة واحدة لم تنفصل" ٠

- مرحبا بكم ، سنطير على ارتفاع حوالى ثلاثين إلـــى اثنين وثلاثين ألــف قدم ، بســـرعة تتراوح بين ستمائة وعشرين وستمائة وخمسة وســـبعين ميلا ، ينتظر أن نقطع مسافة الجزء الأول من الرحلة في تســـع ســاعات وعشرين دقيقة ، سيقوم طاقم الضيافة بشرح بعــض إجــراءات الســـلامة أثنـــاء الطيران ، يرجى الانتباه ٠

"صوته عميق هادئ يوحى بالثقة ، يمضى دون استفزاز حتى يلامـــس العالم الداخلى كأنه جزء منه وليس جديدا وافدا عليه ، هل يذكرك بشيئ ٠ لا ليس ذاك ، وإنما ذاك الذى كان مصابا بالزكام الدائم ، ملامحه الآن ضبابيـــة في غمرة الزمن والناس والأشياء ، لكن كلماته برغم تلك البحـــة الخاصـــة كانت قادرة على أن تصبح جزءا من بنائك ، تترسخ وتقوى وتصبح أساســـا تبنى فوقه وترفع عليه ألويتك يوما بعد يوم وشهرا بعد شهر وسنة إثر سنة ٠ أقوى ما كـــان فيه هو يقيـــن المناضـــل الذى لم يتزعزع أبدا بأن النصــــر قادم ٠٠ ما نراه الآن طبيعى ، إنها آلام الميلاد الجديد لعالم جديـــد ، لمـــاذا الجزع وما كان كان مجرد تجربة ، وكل تجربة عرضة للفشل ، وفشلها مفيد لتصحيح التجارب الجديدة ، لكن تجربة جديدة لم تولد بعـــد ، وتضطـــر أن تسعى بنفسك لكى تتعايش مع الوجوه البشعة الخارجة من جوف الظلمات بعد أن تصورتَ أنه ألقى بها خارج التاريخ ٠٠ برغم كـــل شـــيئ تســتطيع أن تطمئن ، اضحك ملء شدقيك ، أى طمأنينة في عالم تنـــهار فيـــه الثوابـــت وتتلاشى معه الحقائق ، الثابت الوحيد الآن أنك داخل طائرة يعرف قائدهـــا طريقه ، تستطيع أن تطمئن وأنت معه ، لقد قدم بيانات دقيقة تؤكد أنه قـــام بهذه الرحلة مرات كثيرة حتى إنه حدد زمنها بالدقيقة ، لكن كيف تسنى له أن يحدد الزمن بهذا القدر البالغ من الدقة ، أليس تفاوت السرعة في المراحـــل المختلفة مؤثرا في اختلاف الزمن ، من يدرى لعل كل شيئ محسوب بالفيمتو

ثانية وفق أحدث منجزات العلم ، ومن يدرى لعله محسوب على طريقة عمنا جحا في احتساب عدد نجوم السماء بمجرد النظرة المباشرة ٠٠ أنت دائم الشك في كل شيئ ٠

- إنك تفسد حياتنا بهذا الشك ٠

- ليس في المسألة شك ، أريد فقط أن أتأكد ٠

- اسأل إحساسك ٠

- سألته ولم يوصلنى إلى نتيجة ٠

- لابد أن مشاعرك غير ناضجة حتى الآن ٠

- أريد فقط أن أتأكد ٠

- من ماذا ٠

- من سبب إصرارك على حضور اجتماعات التنظيم بعد أن تركته ٠

- قلته لك مائة مرة ، لقد أحببت أن أعرف ما يدور ٠

- لكننى كنت أعرف ، وطلبت منك ألا تحضرى ٠

- وهل معرفتك يجب أن تغنى عن معرفتى ٠

- معرفتى يجب أن تكون مصدرا لمعرفتك ٠

- من حقى أن تكون لى مصادرى الأخرى ٠

- قد لا تكون لديك القدرة على تحليل مدى دقة وصدق هذه المصادر ٠

- لأنك لا تريد أن تترك لى فرصة لزيادة الخبرة ٠

- لقد ضيعت وقتا طويلا في الوصول إلى نفس النتائج التى قلتها لك من قبل ٠

- ليس وقتا ضائعا ما يعلمنى شيئا ٠

- أنا خائف عليك ٠

- وأنا خائفة من رغبتك في احتكار عقلى ٠

شراستها جزء من إثارتها ، قادرة على أن تحملك إلى عالم سحرى من الألوان والأصوات والحركات والأطياف والعطور والرؤى والأحلام ،

هل يمكن أن يجتمع في أنثى شموخ نفرتيتى وإباء حتشبسوت وعشق زليخا وشجاعة كيلو باطرا وعقل شجرة الدر وحكمة آسية ورقة أم إبراهيم ، حنان أمك التى لم ترها وعذوبة وليد تمنيته وهيام عاشق في درجة الفناء ، كم أسرتك الهمسة والبسمة واللمسة ، كم استبدت بك نظرة الشوق في لحظة التواصل • لكنك برغم ذلك أفلت ، تركت العيون باكية والذراعين تقبضان على الفراغ • أضحّى من أجلك •• كاذب •• لا أريد أن أسبب لك مشاكل •• كاذب ، أنا مستعدة لتحمّل النتائج •• لكننى لست مستعدا لأن أحمّلك نتائج أعمال أنا مسئول عنها • كلا لم تكن نذلا ، وهل كانت الظروف مواتية والاعتقالات تمتد إلى كل اتجاه • نالتك الهزيمة برغم عدم اعتقالك ، ونال منك ما ظل يردده رفاقك من أنك مجرد فأر يبادر بالقفز من السفينة عند أول شعور بالخطر ، أيها الأغبياء إنه ليس شعورا فقط • القدرة على التعامل مع المتغيرات جزء من أسلحة النضال ودلالة على تفوق العقل البشرى • أنت في كل الأحوال بين خيارين : البقاء واستمرار المواجهة أو الخروج وإشهار الإفلاس • ليس إفلاسا ولكنه حسن اختيار لظروف المعركة • أجهزت الظروف عليك حين أشاع المغرضون أنك أنت السبب في سقوطهم وسقوطها • وهل يقتنع أحد بأن سقوطها ثمرة اندفاعها وعنادها وإصرارها على خوض التجربة حتى نهايتها • لاداعى لأن تستمر في التذكر ، هذا النوع من الذكريات يضعف القدرة على الصمود والمواجهة ، أى صمود وأى مواجهة وقد سقط كل شيئ فيك حين هوت الجدران وصارت قطعها الكابية وصورها البائسة تذكارات من متحف القرن ، ما أشد حاجتك إلى النسيان ، ما أشد حاجة الدنيا كلها إلى النسيان" •

لم تكد المضيفة تقترب من المقعد وهى تسير في الممر الملاصق حتى مد يده بصورة تلقائية فلاصقت عضدها • وبادرها قبل أن تسأله :

- درئك من فضلك •

نظرت إليه مستفسرة فتابع :

- ويسكى سكوتش .

أجابت بحسم دون تردد :

- آسفة . لا نقدم مشروبات روحية أثناء الطيران

ارتفع حاجباه في دهشة حقيقية ، "هل هذا شكل آخر من أشكال التجليـــات" ، تساءل بصوت يقطر سخرية :

- متى تقدمونها إذن ؟

وتابع هازئا وهو يحدق فيها :

- فى النوم مثلا ؟

رشقته بنظرة باردة وهى تشيح بوجهها منصرفة وخاطر يلح عليـــها : "راكب آخر سخيف محتمل أن يثير بدوره بعض المتـــاعب" ومضـــت فلـم تسمعه وهو يتمتم :

- من يدرى ، ربما كانت العادة القديمة ، أن يسرقوها ليبيعوها لحســـابهم الخاص .

هل سمعه جاره الجالس على الجانب الآخر من الممر فقال كأنمـــا يخفـــف عنه :

- هذه الشركة لا تقدم مشروبات روحية .

التفت إليه معقبا :

- لقد ركبتها من قبل وكانوا يقدمونها .

رد الجار بثقة :

- لابد أن ذلك كان منذ زمن طويل .

- أبدا .

قالها من غير تفكير ، وصمت برهة كأنما يتذكر قبل أن يتابع :

- بضع زجاجات في الرحلة لا تكلف الشركة شيئا .

- قد لا تكون التكاليف هى السبب ، فالأسباب الاقتصادية ليست كل شيئ .

"هل لديه معلومات أو أنه أراد مجرد التبرير" أحس بالصدمة فراح يشغل نفسه بتحليل الموقف "أى قرارات هذه التى تحرم راكبا مقيدا بين السماء والأرض لساعات طوال من مجرد احتساء كأس يخفف بها عن نفسه، من يدرى ، ربما لم تكن هناك قرارات أصلا ، لكن يكفى أن ترفض المضيفة لكى يقتنع مثله بأن هناك قرارات فعلا ، وأن لها أسبابها الحكيمة ، نفس النموذج المقولب الذى يملؤه اليقين دائما بصحة القرارات الفوقية ، يكفى أن تقول له إنه قرار حتى يسلم ويرفع الراية البيضاء ويجهد نفسه في اختراع الأسباب" تمتم وهو يحدق في سقف الطائرة :

- إنها مجرد بداية ، وعليك أن تتوقع المزيد ٠

- ٢ -

ضمت الرضيع إلى صدرها وقد أجهده البكاء منذ أن بدأت الرحلة حتى صعودها الطائرة فشرع في النوم ، أحاطته بذراعيها وهى تداعب بشفتيها شعره الأسود المسترسل ، وكانت أذناها تلتقطان الكلمات المتناثرة من المقاعد المجاورة ، وسرعان ما استغرقها الحوار ، حاولت أن تتأمل أطرافه بطرف عينها فلم تفلح ، تزحزحت وأسندت ظهرها إلى الزاوية المحصورة بين ظهر المقعد والنافذة ، هل أيقظته الحركة ، التفتت رأسه بهدوء تجاهها وعيناه تتفحصها ، كيف لم ير جارته في الرحلة الطويلة ، من حسن الحظ أن الطفل نائم ولكن إلى متى ، إذا كان من النوع الباكى فسيحيل الرحلة إلى قطعة من العذاب .

- كويس أنه نائم .

وأشار إلى طفلها ، غمغمت بصوت غير واضح :

- تعبنا كثيرا .

وأردفت تستدرك موضحة :

- أرهقنا الاستعداد للسفر .

عقب مؤيدا .

- السفر بطبيعة مرهق .

هزت رأسها موافقة ، لكنه تابع متظاهرا بالعفوية حين يريد أن يرسم صورة خاصة عند من لا يعرفه :

- ومع ذلك فأنا أحبه .

صمتت ، "تحبه أو لا تحبه لقد تسرعت ، ماذا يعنيها من أمر حبك للسفر ، إذا ظللت على هذا النحو المتسرع لن تكون قادرا على التواصل مع أحد ممن حولك ، ستصبح الساعات التسع مع العزلة سنوات تفترسك وتلفظك ، وحين تصل ستكون الهزيمة الكاملة قد لحقت مرة أخرى بك" .

هل أراد أن يجرب أسلوبا آخر حين تساءل وهو يبتسم :

- كم عمره .

- أربعة أشهر .

قالتها وهى تحكم وضع رأس الوليد على جانب صدرها الأيسر حتى لا ينزلق ، تابع وما زالت الابتسامة معلقة على شفتيه :

- أظن أن هذه هى رحلته الأولى .

هزت رأسها بإيجاب . بينما استمر :

- مؤكد أنها لن تكون رحلته الأخيرة، عندما يكبر سيكون قد اعتاد السفر .

تمتمت في نفسها "ليته لا يكون كذلك" .

- ومؤكد أن هذه ليست رحلتك الأولى .

أو مأت برأسها صامتة ، "هذا الرجل ينكأ الجراح ، هل تذكرين رحلتك الأولى ؟ لا يفصلك عنها سوى عام ونصف ومع ذلك كأنها حلم مرت عليه قرون ، مؤكد لست أنت التى كانت ، تلك كانت عروسا مجنّحة تركت عالمها وراءها وطارت محلقة في السموات العلى مرتدية فستان الفرح تحلم باللقاء المنتظر والحياة الجديدة في عالم جديد ، تتلقى التهانى من طاقم الضيافة الذين

يقدمون إليها الحلوى ويرحب بها قائد الطائرة ، يذكر اسمها بالميكروفون من خلال إذاعته الداخلية ليتردد اسمها بين الركاب مقترنا بالتصفيق حتى إنـــها ترفض أن تغمض عينيها خشية أن يكون ما يقع حلما يذهب بـــه النـــوم ٠٠ الزواج قسمة ونصيب ، فكرى في عريسك ومستقبلك ، يقولون أصبح رجـل أعمال وعنده هناك مشاريع ويكسب الآلاف وستعيشين ملكة ، طبعـــا لــن تنسينا ، نحن لا نطلب منك شيئا لأنفسنا ، لكن المهم هو أخوك تخرّج كمـــا تعرفين من التجارة من سنوات قبل أن تحصلى على الدبلوم وحتى الآن فـــي انتظار الفرج الذى سيكون على يديك بإذن الله ، لو استطعت أن تجدى لـــه عملا في مشاريع زوجك لكان أفضل ، لن يجد واحدا قلبه على ماله مثله ٠٠ ما أطول حسرتك ، أى مال وأى مشاريع ، محل الكبيبة والحمص في الممـو الخلفى من المول الهندى ، لا أحد يعرف طريقه ولا يوفر إيجاره إلا بشـــق النفس ، السيارة الأمريكية التى حدثوك عنها ليست إلا فورد قديمة نصف نقل انتهى عمرها ، الفيلا الفاخرة مجرد بيت خشبى في ضاحية السود الجنوبيـــة أسوأ ضواحى السود في المدينة ، أحـــلام الســهرات الورديـــة الموعـــودة تمخضت عن قضاء الليالى بين نقع البرغل وتصفيته وتوضيبـــه وتجـــهيزه ليتحول بين يديه إلى وحدات الكبيبة في انتظار حشوك لها حتى تكون جاهزة للقلى أمام المشترى ٠٠ سترتاحين يا ابنتى من نتانة فضلات الفراخ وقـــرف مخلفات الخنازير ٠٠ ارتحت فعلا يا أمى ٠٠ كل الناس هنـــا يعملـــون ولا وقت للكسل في هذا البلد ، رتبى أمورك على هذا الأساس ٠٠ لم أتصـــور أن الحياة هنا ستكون بهذا الشقاء ، أمك كانت تتكلم كثيرا عن امتلاكك لشـــركة تكسب الآلاف ، وكان إخوتك يتباهون بالملابس التى ترسلها إليهم ٠٠ أنا لـــم أخدع أحدا ولا أظن أن أمى خـــدعت أحدا ، قلـــت إن عنـــدى مشـــروعى الخاص ، وهذا صحيح ، والملابس التى تتحدثين عنها صناعـــة صينيـــة ، يمكنك بعد فترة أن ترسلى بعضا منها لأهلك ، لكن المـــهم أن نعمـــل بجـــد لتحقيق أحلامنا ، أحلم بإنشاء خط إنتاج نغذى به مراكز التوزيع ، المســـألة

فقط مسألة وقت ٠٠ تحلمين بطبق محشى ، مستعدة أن تعمليه ٠٠ هات الخضار وسأقوم بعمله ، كلام فارغ ، لا أفهم كيف أن الواحدة تضيع ساعات وساعات حتى تطبخ طبقا ثم تأكله في دقائق ٠٠ إمال تحنطه ٠٠ أنت تخرفين ، ثم إنه غير مفيد صحيا ٠٠ رائحة الملوخية في أنفك ٠٠ لابد أنك مزكومة ٠٠ قد تأتى الوحمة في جبينه ٠٠ عليك أن تتخلصى من العادات والأوهام ٠٠ تعبى ليس وهما ، تعبى هو الحقيقة الوحيدة في حياتى ٠ أنا تعبانة ٠٠ هذا دلع ، لست أول واحدة تحمل ولن تكونى الأخيرة ، في بلدنا كانت المرأة تعمل بالفأس حتى ساعة الولادة ، وتضع طفلها وحدها وتحمله في مقطفها عائدة من الحقل لتصنع لزوجها العشاء ٠ لا أطلب منك أن تعملى مثلها ، يكفى أن تكون إجازتك من العمل معقولة ، أسبوع مثلا ٠٠ أعمل قبل الأربعين ٠٠ أى أربعين ، أربعين يوم تطير من عمر الإنسان بلا معنى ولا طعم ولا فائدة منها ، في البلد الناس لايقدرون قيمة الزمن ، لا مانع من أن يظلوا شهور بلا عمل ، الميلاد مناسبة للكسل والموت مناسبة للكسل ، أربعين يوم هنا وأربعين يوم هناك ، نحن هنا في عالم مختلف ، الدقيقة لها ثمن ٠٠ لا تنزعجى ، يمكنك خلال ايام العمل الذهاب لمتابعة الرعاية الطبية ، لدينا ولد أمريكى ينفعنا حتى بعد حصولنا مستقبلا على الجنسية ، يقدمون معونة غذائية بالإضافة إلى الطبية له ولأمه ويجب أن تحصلى على هذه المعونة ٠ المتابعة الطبية ليس معناها الانقطاع عن العمل ، بل معناها محاولة التعويض بدلا من الساعات الضائعة سأنقل لك أدوات العمل في المنزل ليكون التعويض سهلا عليك ٠ سيكون صعبا على وسأتحمل عبئا إضافيا في النقل مرتين من المحل إلى المنزل ومن المنزل إلى المحل ، لكن سأتحمل ، ما الحيلة ، على كل منا أن يضحى ٠ هذا قدرنا مادمنا قررنا أن نعيش في هذا البلد ٠٠ أنت قررت وحدك أن تعيش ، إنه قرارك أنت ، لم يكن لى حق الاختيار ولم أشترك في قرار ، فلا تفرض على قرارك ، لكنك جبنت عن المواجهة أياما طويلة ، الدموع الصامتة في القلب تخشين أن يطلع

عليها أحد ، ليتك تستطيعين أن تجدى من تفضفضين معه ٠٠ وما فائدة التليفون ، عملنا في هذه المرحلة لا يحتاج إليه ، وليس لدينا وقت للثرثرة مع أحد ٠٠ اشتقت إليهم ٠٠ لأن لديك وقتا للتفكير فيهم ، لو أنك تجهدين نفسك في العمل فلن يكون لديك وقت للتفكير في أى شيئ ، أنا مثلا لم أعد أفكر فيهم إلا نادرا ، لقد أوشكت أن أنساهم ، تمر على أيام طويلة من غير أن أفكر فيهم ٠٠ تريدني أن أنساهم ٠٠ النسيان نعمة ، ننسى لكى نعيش مرتاحين ٠٠ وأين هى الراحة ٠٠ كلما أنتجت أكثر ازددت راحة ، تتعبين جسديا فلا يعود هناك وقت للتفكير في الماضى والحنين إليه ٠ لو أنك تفكرين في المستقبل ما انشغلت بالماضى ٠٠ الماضى هو المستقبل ، أحلم بالعودة معك ومشروع ناجح في بلدنا وحولنا كل الأهل الذين يحبوننا ٠٠ كلام خائب ، لا مكان للماضى في المستقبل ، بدأت مشروعى هنا وسيستمر هنا ، الذين يرقصون على الحبل لا يصلون ، ينقطع بهم حبل العمر ويضيعون ، حياتنا هنا ومستقبلنا هنا ٠٠ ألن نراهم أبدا ٠٠ من قال ذلك ، ذات يوم ربما بعد سنوات قد تكون قليلة لو اشتغلنا بجد سيكون في إمكاننا أن نقوم بجولة سياحية ، ربما نزورهم فيها لنراهم ويرونا ٠٠ ما أطول عذابك ، هل هذا معقول ، حلم الرحلة السنوية المصحوبة بالهدايا التى تغمر الكل مستحيل ، صدر أمك يضم وليدك مستحيل، صخب أختك الصغيرة وتهريجها مستحيل ، حزن أخيك الدائم مستحيل ، الجلوس على الكنبة للتعليق على أحداث المسلسل وقشر اللب يتطاير كالصواريخ مستحيل٠٠ إنتاجك لم يعد كما كان ، أصبح سيئا ويحتاج إلى إعادة تجهيز ، سيكلفنا بهذا الشكل وقتا إضافيا نحن في أمس الحاجة إليه ٠ هذه خسارة مؤكدة ، أنت الخاسرة ٠٠ مهما عشت هنا فلن تنبت لك جذور ، جذورك هناك مطمورة في الطين تغذيها الذكريات ، كلمات النميمة في قعدات المغرب ولمة الأعياد وزحمة المولد في السيدة والحسين ، ياسم لمراهق يتعقبك بكلمات غزل تثير النشوة ، ويدك تلوح بالشبشب لآخر يمد يدا إلى مؤخرتك فيغوص في الزحام

قبل أن يجتمعوا عليه وكل منهم يتنافس في إعلان حمايتـــه لـــك ، نظـرات الشوق المستجدية ولمسات اليد المفاجئة ، صراخ المشاهدين في السينما أثناء تبادل القبلات على الشاشـــة ، وهياج جمهور المقهى عنـــد تسـجيل هـدف الأهلي ، التسلل في ظلمات الليالي الحارة لاستراق النظر إلى الجـــارة فـــي الشقة المقابلة تستلقى بقميص النوم الممزق إلى جـــوار رجلـــها ، تحبســين أنفاسك تتسمعين ، تحدقين ترقبين ، اليد المسترخية لا تتحرك ، ليتها تتحرك، إنها تتحرك إلى الوسط الضامر ، تغمضين عينيك خجلا مـــن أن تصعـــد أو تهبط وتأخذين طريقك إلى الحمام ٠ لقد رأيت هنا نساء ورجالا أشبه بالعرايا يفعلون في المول ما يريدون ، تمتد أيديهم وأفواههم إلى كـــل جـــزء مـــن أجسادهم ولكنهم لم يتركوا فيك غير إحساس بالتقزز ٠٠ شايف القـــرف ٠٠ هذه أمور عادية هنا بكرة تأخذين عليها ٠٠ البنت تمسك به ٠٠ لا تنظــرى ولا تهتمى ، فأنت بهذا ترتكبيـــن جريمـــة يعاقـــب عليها القانون ٠٠ أنـــا التى ترتكب جريمة ، معقول ٠٠ هذا هو القانـــون ٠٠ معقول ٠٠ عـــودى نفســـك ٠٠ لا أفهم ، عودى نفسك ، لا أستطيع ٠٠ عودى نفسك ، من يريد أن يبنى مستقبله هنا يجب أن يعوّد نفسه على أشياء كثـــيرة ، وكـــل شـــيئ بالتعود ممكن ٠٠ لكنك لا تستطيعين التعود ، في كل مرة تظنين أنك أوشكت أن تألفى تحسين بوخزة إبرة أو طعنـــة سكين ٠٠ البدين ذو القميص المشجر المفتوح طبطب على ظهرى وأنا أقدم له الطلب ٠٠ لا شيئ في ذلك ، مجرد عادة لا أكثر ٠٠ ذلك الطويل الواقف إلى جوار الباب الداخلـــى حـــاول أن يقبلنى ٠٠ لا تنزعجى ، إنها طريقتهم فـــي التحية ٠٠ البغـــل الاســـترالى وضع اصبعة في ٠٠ لا تكملى ، حتى تفهمى الأمور تماما لا يستطيع أحد أن يفرض عليك هنا أن تمارسى معه بدون رغبتك ، القانون يحميك وأنا مطمئن تماما لذلك ، فلا تهتمى بهذه الأمور الصغيرة ٠٠ يـــده امتـــدت إلـــى ٠٠٠ زهقت ، أين تظنين نفسك في الخيامية وتحت الربع ، أجلى الكـــلام فـــي أى مشاكل إلى ما بعد العمل ٠٠٠ في المساء قبيل الإغلاق امتدت يد إلـــى ٠٠٠

كونى عاقلة لا داعى للكلام في مشاكل العمل في أوقات الراحة ، كلنا نواجه المشاكل ، سنتعب أنفسنا لو حملنا مشاكلنا معنا إلى بيوتنا لتنغص علينا حياتنا ... أنت نكدية ، لا تفكرين إلا في الأشياء السخيفة ، عودى نفسك على أن تحتفظى بسخافاتك لنفسك وأنا من ناحيتى لن أسالك عنها ... اتضح كل شيئ يابنت المغربلين ، ابن أم بطة لم يكن يريد زوجة بل شغالة من غير أجر ، ينام معها إذا رغب لأن هذا أرخص ، ويغمص عينيه ما دام في ذلك مصلحة . لو كنت على استعداد لهذه الشغلة لما كنت قد سافرت ولقيت العذاب ، ليتك تستيقظين فتجدين أن كل ذلك أوهام أحلام ، وأنك ما زلت على الكنبة في الصالة بين أمك وأختك في انتظار المسلسل تتراشقون معا بالكلمات" .

* * *

هرير القطة النائمة يتسلل برفق إلى أذنيك ، برغم رقة الصوت تتوجس ، لقد شرعت في النوم ولو استغرقت فيه فإن من المؤكد أن ينتقل إلى طبقات عليا قادرة على أن تضعك على السفود وتقلبك على الجمر . شيئ فظيع شخير نائم ، خصوصا إذا كان واقفا على ساق في الزحام منتظرا الاستدعاء للتوقيع على أقوال لا يعرفها في موضوع لا يعرفه ، وأشد منه فظاعة شخير امرأة غريبة تضع رأسها إلى جوار رأسك يقرع أذنيك فتفتح عينيك فإذا الفم الفاغر ذو الرغوة الزبدية يمحق كل الصور الجميلة في اليقظة ويسحق أى احتمال لها في الأحلام .

نظر إليها بإمعان ، عيناها نصف مفتوحتين ، هل ترى ما حولها ، تحرك حركة خفيفة فلم تنتبه ، الطفل يوشك أن ينزلق بعد أن ارتخت إحدى يديها . انحنى على الكرسى الخالى بينه وبينها وقال بصوت هادئ لكنه قادر على أن يوقظها :

– اسمحى أن أعدل لك الكرسى حتى ترتاحى ويرتاح الطفل .

انفتحت عيناها بتلقائية وقالت بصوت مفعم بالخجل والدهشة :

– أنا آسفة

هل استوعبت ما قال ، تابع ربما ليتأكد :

– واضح أنك متعبة ، سأعدل لك الكرسى .

ومد يده إلى الزرار الجانبى لمقعدها فانفرج الظهر انفراجة كاملة في حركة لم تتوقعها ، اعتدلت بدلا من أن تسترخى وهى تغمغم :

– لا ، شكرا ، الأول أحسن .

رفت على شفتيه ابتسامة وهو يقول :

– أمامنا وقت طويل لابد من أن ترتاحى فيه .

ومع تلك أعاد وضع الظهر إلى ما كان عليه ، هل كانت هذه رغبتك الحقيقية ، أن تجعلها تتوفز حتى لا تسقط في النوم أمام الغرباء ، الخبرة مفيدة برغم تقادم الزمن .

- ٣ -

أشرقت الابتسامة على وجهه وهو يقول برضى :

- الحمد لله ، كانت رحلة موفقة ٠

هز جاره رأسه مؤيدا وهو يرفع كفيه متلاصقتين إلى أعلى :

- لله الحمد ، كان فيها خير كثير ٠

لم يسمع الكلمات بدقة فتمتم كأنما يواصل حديثه :

- هو فضل الله يؤتيه من يشاء ٠

عقب صاحبه :

- بارك الله فيك ، لقد بذلت جهدا مشكورا ٠

تمتم حامدا قبل أن يقول :

- هؤلاء الناس يعرفون الكثير ٠

وصمت لحظة ليضيف :

- يعرفون كل شيئ تقريبا ٠

قاطعه صاحبه كأنما يجامله :

- لكنك استطعت بفضل الله أن تضيف إلى علمهم ما لايعلمون .

غمغم فلم يبن ، ثم قال ربما ليتأكد هل هو جاد أو هازل :

- تظن ذلك .

- قطعا كلامك عن الحوار والتعاون بدلا من الصراع كلام عالم متمكن أحاط بكل شيئ ، هو في ميزان حسناتك إن شاء .

"أضفت إلى علمهم نعم ، لكن الكثير هذا ما لاسبيل إلى القطع به ، من خلال الحوارات الخاصة التى لم تحضرها يا صاحبى تأكد لى أنهم لا يلعبون، وأن لديهم من المعلومات ما لا سبيل إلى حصره ، لكنك مع ذلك أثبت ذكاءك ، استطعت أن تناقشهم وتحاورهم وتتحرك بهم في كل اتجاه ، في النشأة والتطور ، في الأسباب والغايات ، في الأمل والعمل ، في الثروة والثورة ، في الداخل والخارج ، في الحقائق والأكاذيب وأهم من كل ذلك جعلتهم يفهمون كيف تفكرون ، وتحللون ، وتحرمون ، ما أظن إلا أنهم أصبحوا الآن على يقين من أن القدرة تتزايد والهدف يقترب . لكن المشكلة ما زالت قائمة ، كيف سيتصرفون ، مع من سيقفون ، لقد حاولت جهدك في أن تؤكد لهم أنهم غير مستهدفين وأن مصالحهم لن تمس ، وقد رحبوا بهذا التأكيد ، لكن كل كلمة تثير شكهم ، كل موقف يبعث على ريبتهم . أى لقاء عابر أو زيارة مجاملة حتى لو كانت في أقصى نجع تدفعهم إلى الحذر وتحملهم على الترقب .. كلماتكم نارية .. إنها مجرد كلمات .. لكنها تثير الجماهير .. لتكون تحت السيطرة .. قد تصبحون أسرى شعاراتكم .. من يصنع الشعار قادر على تفسيره .. اللعب بعواطف الجماهير مسألة شديدة الخطر .. من يحصن الحشد يحسن التوجيه .. التجارب المماثلة فاشلة .. لا تجربة تماثل تجربتنا .. وتجاربكم السابقة فاشلة .. لأنكم تنظرون إليها بشكل جزئى .. نحتاج إلى توضيح .. في تاريخنا تقترن معاهدات المدينة وفتح خيبر وتتآخى واقعة صفين وشعرة معاوية" .

تهدج صوته وهو يتمتم بصوت خفيض :

- **الحمد لله من قبل ومن بعد ٠**
- **إنها بركة الإخلاص ٠**

أسبل عينيه حين انتابته نوبة التأمل التى تجتاحه كلما أحس بأنه على مفترق طرق "من كان يظن أن صبى عزبة الهجانة الذى اشتغل منذ الثامنة ناضورجيا واغتصبه زينهم العجلاتى وهو في العاشرة بدلا من أن يصبح وفقا لكل التوقعات هجّاما يصل إلى ما لم يصل إليه أحد ، يجتمع العلماء والمفكرون والمخططون في مركز بحثى من أهم مراكز الجامعة المشهورة على بعد آلاف الأميال ليستمعوا إليه ويروا المستقبل من خلاله" ٠

- **رحمه الله ، اقرأ له الفاتحة وادع له بالرحمة ، في المأثورات أن الدعاء في السفر مستجاب ٠**
- **رحمه الله ، من ؟**
- شيخنا ومعلمنا ٠

"شيخك أنت ومعلمك ، لم يكن فوق مستوى الشبهات ، حين هبط على الجماعة بالباراشوت من أقصى اليسار مزق وحدتها وانحرف بها تحت شعار القدرة على مواجهة المتغيرات" ٠

"رحمه الله كان بعيد النظر ، منذ اللحظات الأولى للقاء معه أحسست به يضعك في دائرة اهتمامه ، هل يستطيع أن ينسى طالب السنة الثانية بالحقوق تلك الكلمات التى نقشها عضو مكتب الإرشاد على القلب فانتقلت به من مستوى إلى مستوى ومن عالم إلى عالم ٠ إن اللقاء وما دار فيه محفور في الأعماق تردده كل نبضة وقد أصبح نقطة التحول وقاعدة الانطلاق ٠ ما زال أمام عينيك يستمع إلى إجاباتك عن أسئلته مفتر الثغر كأنما كان يتوقع كلماتك فتجيئ مطابقة لتوقعاته ٠٠ حدثونى عن تفانيك في الدعوة وشجاعتك في الحق فأردت أن أراك ٠٠ أنا جندى يستهدى بنور توجيهاتك ٠٠ نحن جميعا نهتدى بنور الله ٠٠ حين رأيتك وجدت فيك ما لم يقولوه ، ربما لأنهم لم يدركوه ٠٠ أنا أيضا لا أدركه فلست إلا نقطة في بحر علمك وقطرة من

محيط تجربتك .. لا أريد لك أن تمر بما مررت به من تجارب سلفت ، عفا الله عنا إذ أضعنا بعض العمر فيها .. يعجبنى أنك لم تسأل ، لكن الحقيقة واضحة كالشمس .. لقد كنت طوال عمرى أبحث عن الحق ، وكثيرا ما غمّى على أو شبّه إلى ، إلى أن شاء الله هدايتى كما شاء سبحانه لنبيه إبراهيم أن يهتدى إلى نور التوحيد بعد طول تردد . استمع إلى النصيحة الخالصة لله .. لا تفكر إلا في ما آل إليه حالنا لأنه اليقين وهو المنطلق إن شاء الله .. إنى لك سامع مطيع .. في المنشط والمكره ، أعرف برك بقسمك ، لكن أريد منك ما هو أهم من قسم العامة .. مرنى تجد بفضل الله وعونه ما تحب .. ستحمل ما تنوء به الجبال .. أنا أطوع لك من بنانك .

- أعرف أنك كنت من أقرب المقربين إليه .
- الحمد لله ، كان الاقتراب منه نعمة .
- هل تحدثنى عنه .
- أفعاله تتحدث عنه .
- قد لاتحسن الحديث .
- هذا حديث السفهاء وحاشاك أن تكون منهم .
- أعوذ بالله أن أكون منهم .
- تعلم يا أخى أن نحوا من هذا الحديث قالوه عن المصطفى .
- لكن المصطفى لم يتردد بين أقصى اليمين وأقصى اليسار .
- غفر الله لنا ولك ، إنها مرحلة الرحلة .
- أى رحلة .
- رحلة البحث عن الحق .
- ولم يلق سلاحه حتى قبض .
- صلوات الله عليه ، إنه المثل الكامل في السلوك .
- أحيانا تغيب عنا الأسوة .
- إنه ضعف البشر .

- لا أفهم لماذا نقول لكل طاغية في كل استفتاء نعم ، ألا يكفى أن نصمت ٠

- ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ٠

- إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ٠

"حذار ، هذا واحد من الذين حذرك منهم منذ زمان بعيد ٠٠ أبناؤنا الذين تعرفهم وكثير غيرهم من الإخوة الذين لا تعرفهم لا ينقصهم الإخلاص ولا الشجاعة ، ولكن ينقصهم الذكاء والحكمة ، وهم ليسوا مؤهلين لأى منهما ٠ لأن الذكاء موهبة ، والحكمة ثمرته ٠٠ رحمك الله رحمة واسعة ، هذا واحد من أبرز الدعاة ما زال من العامة لا ذكاء فيه ولا حكمة له" ٠

- يا أخى تعرف أن من أبواب الفقه باب الأولويات وهو في القانون ما يسمى بالمواءمة ٠ علينا دائما أن نوازن بين المواقف من خلال النتائج المحتملة ، وأن نرجح بينها من خلال أكثرها احتمالا وتحملا ٠

- أعرف يا أخى ، وأنا أردد دائما ما تفضلت به ، لكن هذه فرصة نادرة أنتهزها ، إننى أحاول أن أفكر معك بصوت عال فيما يشيعه أعداؤنا ٠

- لا ينبغى أن نعبأ بهم ، فهم مثبطون للهمم ، مضيعون للحق ٠

- أنا معك تماما ، لكننى سمعت شيئا منها في أروقة المؤتمر في الجلسات التى غبت عنها فقلت هذه فرصة لنتدارسها ٠

- كنت أنتظر بعض المكالمات وأجرى بعض الفحوص ٠

- واطمأننت بفضل الله ٠

- الحمد لله ٠ ماذا سمعت في هذه اللقاءات ؟ ٠

- يقولون أنتم تريدون السلطة على طبق من ذهب ، تريدون أن تدفعوا غيركم ليقاتل معركتكم ولا تقدمون التضحيات اللازمة ٠

- هذا هراء ٠ لقد قدمنا عشرات الشهداء وآلاف المسجونين ٠ منذ أكثر من نصف قرن ونحن ندفع الثمن الباهظ ٠

- قلت هذا ولكنهم ردوا بأن هذا ثمن بخس . وأننا نفكر بأسلوب الجاهلية الأولى حين يتحدثون عن حرب استمرت أربعين عاما ومجموع القتلى فيها أقل من العشرة .

- هكذا إذن .

- يقولون أين تضحياتكم مما حدث في رومانيا مثلا حين قتل أكثر من ستين ألفا في يوم واحد من أجل إسقاط النظام .

- هكذا إذن .

- يقولون إن ديمقراطية السلطة إذا كانت لا تعجبكم فإن عليكم أن تثبتوا وجودكم .

- هكذا إذن .

- يقولون إن إسقاط النظام يحتاج إلى تضحيات تعد بالآلاف لا بالعشرات أو المئات .

- هكذا إذن .

- يقولون إن إقامة دولتكم بدورها تتطلب تضحيات بالآلاف .

- هكذا إذن .

- يقولون إن جماعات حقوق الإنسان ستعمل في كل الأحوال ، لكن الآلة الإعلامية لا تهتم إلا بمن يستطيع أن يجرى الدماء أنهارا تحت أفق مشتعل بالنار .

- هكذا إذن .

- هكذا .

- هل حضر هذه المناقشات عدد كبير من الجمهور .

- عدد محدود للغاية ، وكانت تدور في اللقاءات الجانبية .

- وماذا كان ردك عليهم .

- لله الحمد ، أخوك استطاع بفضل الله أن يفحمهم في كل مرة أثيرت فيها شبهة جعلت السائل على يقين من أن هناك من يحاول تشويه صورة

الإسلام بوصمنا إما بالتخاذل والاستسلام وإما بالعنف والإرهاب ، والدعوة الحقيقية بريئة منهما على سواء •

- بارك الله فيك •

"الكفرة الضالون يلعبون بكم جميعا ، يسخرون منك في حوار بعيد ليستكشفوا الباقين فرادى من خلف ظهرك ، لكن مع ذلك ترو وكفكف من غضبك ولا تنفعل ، انفعالك عليك لا لك ، مما علمك إياه أن الحق يتجدد أما الباطل فيتعدد ، إنهم يسعون إلى دعم باطلهم أما أنتم فتسعون إلى نصرة حقكم ، فهل يمكن أن يوجد بينكم نقطة تقاطع تلتقي فيها كل الأطراف" •

- لكنني مع حمد الله على توفيقه فيما هداني إليه أحب أن أستضئ برأيك •

"لو أنك تعلمت ما تعلمته أنا ما سألت عما سألت عنه • فليس كل ما يعرف يقال ، وليس كل ما يقال جاء وقته ، وليس كل ما جاء وقته حضر أهله • لكن أنى لمثلك أن يدرك الحكمة وهو يطرق الأبواب" •

- أحسنت فيما هديت إليه ، ومثلك إن شاء الله إذا اجتهد أصاب •

ألح عليه بنظراته وتحفزه للاستماع ولم يفطن إلى الرد المبطن بالرفض، لقد كانت فرصة نادرة ليقف من خلاله على تفسير عما أثير من قبل وما يمكن أن يثار من بعد ، كان واثقا من أن صاحبه بحكم مقدرته وخبرته قادر على دحض الاتهامات المعادية ويريد أن يقارن بين ما قاله وما سيقوله ، لقد أطلق على هذه الاتهامات في لقاءاته الجانبية وصف الشبه الزائفة ، وحكم عليها بالتهافت ، وأعلن سقوطها بالضرورة ، لكنه مع كل ذلك كان يحس في أعماقه بأن عباراته خطابية غير مقنعة لهم ، وجال في خاطره أن ذلك يعود إلى أنهم معادون للحق معاندون ، فلم يعد يعبأ في اللقاءات الأخيرة بإقناعهم ، وفزع إلى أسلوب التحذير من الإساءة إلى الدين ، ورويدا رويدا انزلق التحذير إلى الإنذار ، ورفع بإنذاره درجة الاستعداد للخطر ، حتى بدا في بعض اللحظات أن الحرب المقدسة على الأبواب " لعنهم الله أنى يؤفكون ، لقد سد العناد عليهم منافذ المعرفة" أخذ

يوازن تلقائيا بين ما قاله وما يمكن أن يقوله صاحبه لو كان في مكانه ، وتمنى أن يتطابق الموقفان • تمتم لنفسه مواسيا : "كلٌ ميسَّر لما خلق له" ، لكن ظلت مع ذلك المقارنة ماثلة في الذهن بين العدد المحدود دائما الذى لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة والجماهير الحاشدة التى لا يحدها بصر والتى لا تكاد تعرف أنه سيتحدث حتى تزحف إليه من كل حدب وصوب ، من الأزهر إلى عمرو بن العاص ومن أسد بن الفرات إلى القائد إبراهيم ، من نقابة المهندسين إلى الصيادلة ، ومن الصحفيين إلى المحامين ، من كرداسة ونجع عثمان إلى الجامعة ومنها إلى معرض الكتاب ، انحفرت مشاهد الجماهير الهادرة التى لا يحدها بصر تقابل كل مقطع من مقاطع خطبه الطويلة بصيحات الإعجاب والإكبار مرددة النداء الخالد تتخللها مشاهد المائدة المستديرة في حلقة النقاش الجانبية والجالسون ينظرون بعيون باردة ووجوه لم يعرف طوال الوقت هل الابتسامة المرسومة عليها للإعجاب أو للسخرية •

"ما شاء الله" ، وهبه المولى نعمة القبول ، هل يمكن أن تشهد في حياتك مثل هذا النجاح ، تتحرك الجماهير من كل مكان بإشارة منك ، تتجمع حيث تأمر ، تنتقل إليك العدسات والميكروفونات من أصقاع الأرض تنتظر كلماتك ، تحلل عباراتك ، تتبارى في استكناه مواقفك ، إنه ينظّر ، بل يحذّر ، إنه يفسّر ، بل ينذر ، تهتز العروش ويرتبك أصحاب السلطان ، تنطلق الاجتماعات وتتوالى الوفود ، يصمت الكل في الانتظار ، إنه القول الفصل وما هو بالهزل" •

- ٤ -

- أى خدمة ، تحت أمرك .

فتح عينيه مستطلعا في دهشة ، أدركت مباشرة أنه يضغط زرار الاستدعاء خطأ ، قالت برقة وهى تشير إلى الزرار تحت إصبعه ينقره نقرات متتابعة :

- سيادتك طلبتنى .

توقف إصبعه عن النقر وهمس معتذرا :

- ما نستغناش يا قمر .

وعلقت عيناه بعينيها لبرهة قصيرة لكنها كانت كافية لأن يردد بينه وبين نفسه : "قمر صحيح" وسرعان ما أغمض عينيه وعاد إلي ما كان فيه "ما معنى هذا ؟! استعدادات طويلة واجتماعات مغلقة قبل السفر واجتماعات مغلقة بعد السفر ، وتنبيهات وتحذيرات وتوجيهات ثم ينتهى الأمر إلى ما انتهى إليه ، لاشيئ" .

فتح عينيه ، التفت إلى جاره ونظر صامتا كأنما يستأذن ، قال جاره بحسم ينم عن ضجر :

- نعم .

- اسمح لى معاليك .

- نعـــم .

- أحب أن أعرف تقييم معاليك للرحلة .

- ناجحة طبعا .

قالها كأنما يستخف بالسؤال وصاحبه ، وتابع ، ربما للتسلية :

- ما رأيك أنت .

سارع بالإجابة دون لحظة تفكير :

- نفس رأى سيادتك معالى الباشا .

وبرغم الجد الظاهر رفت في الصوت ابتسامة غير منظورة وهو يتابع :

- من الممكن أن يكون رأيك مختلفا مع رأيي .

تحرك الظهر شبه المسترخى إلى جلسة الانتباه ، وحملت ملامح الوجه شـــدة التوتر ، ونتحت العينان من بئر الخوف :

- أستغفر الله ، لا يمكن أن يكون لى رأى بعد رأى ســـيادتكم يـــا معـــالى الباشا .

أغراه الموقف بالتمادى فأضاف :

- أنت ضابط جيد ، وقد اخترتك بنفسى ، وأحب أن أعرف رأيك الحقيقى .

- لا يصح أن يكون لى رآى مع رآى سيادتكم يا معالى الباشا .

- غلط .

توفزت الحواس وغاضت الدماء وغاص القلب في بحر الرعب وهو يســـتبق الكلمات على الشفاه :

- يجب أن يكون لك رأى فأنا رجل ديمقراطى .

وتفجر ضحكه ينبوعا وهو يضيف :

- بشرط ألا يختلف مع رأيى .

ما دامت أعجبت معاليه النكتة التى ابتكرها فليتحول الجدول إلى نهر يـــردد شاطؤه الضحكات :

- لا تنس أننا ما زلنا في أجواء الديمقراطية .

- لكن على أرض مصرية ٠

لم تكن النكتة وحدها هى التى حبكت رده بقدر ما كانت رغبته في إسعاد معاليه ، ولم ينس أن يضيف بالتزام :

- تمام معالى الباشا ٠

- هذه هى المرة الأولى التى تأتى فيها معنا ٠

- تمام معالى الباشا ٠

- لك حق ٠

ارتفعت نظرة الدهشة دون أن يجرؤ اللسان على السؤال ، ولكن معاليه ترفق به فأضاف مفسرا :

- التوتر في الزيارة الأولى طبيعى جدا ، وسيزول قطعا في الزيارات التالية ٠

وصمت برهة وجيزة قبل أن يضيف ٠

- لقد جربت ذلك بنفسى ٠

استغرقت معاليه البهجة ، فأخذ يحكى في تبسط ولطف كيف كانت زيارته الأولى منذ سنوات طويلة ، وكيف كان القلق ينتابه كلما فكر في أنه سيقابل البعض لأول مرة ، حتى إنه طلب من بعض المختصين في السفارة الاستعانة بخبير لإعداد سيناريو لما يمكن أن يدور من حوار متنظر ٠

- كان سيناريو عظيما ، تناول كل شىء ، الموضوعات والمسائل والجوانب الشخصية ، حتى كلمات التحية والإشارات الخاصة التى تدل على الذكاء - والتلميحات التى تؤكد روح الدعابة ، لم ينس شيئا أبدا ، وقضيت عدة أيام في حفظه ٠ لكن المفاجأة كانت كاملة وغير متوقعة ٠

- أى مفاجأة معالى الباشا ٠ هل نسى السيناريو شيئا ٠

- أبداً أنا الذى نسيت ، لم أتذكر كلمة واحدة ٠

قهقه عاليا وهو يضيف :

- فورا عدت إلى طبيعتى ، قلت لهم أنا الذى أتحدث ، وليس شخص آخر يجرى حديثه على لسانى .

- رائع معالى الباشا هذه هى العبقرية .

- هذا صحيح من يومها وهو يفهموننى جيدا .

- تمام معالى الباشا ، لاحظت ذلك . فهم جميعا يقدرون معاليك كل التقدير ، يقولون إن معاليك عبقرى .

- المضحك في الموضوع أنهم في السفارة ما زالوا حريصين على أن يكتبوا سيناريو في كل زيارة مع أننى أرفض حتى مجرد النظر فيه .

- لماذا يكتبونه إذن ؟

- لا أعرف فأنا لا أهتم بهذه الأمور التافهة .

فجأة قال في لهجة آمرة كأنما استفاق من غفلة :

- سكوت سيادة اللواء .

وأضاف بعد لحظة صمت :

- أريد أن أستريح .

تمتم وهو يكاد يقفز ليؤدى التحية العسكرية .

- تمام معالى الباشا .

تابع معاليه بحسم :

- احذر أن تغفل عينك لحظة واحدة .

- تمام معالى الباشا ، اطمئن تماما .

وكيف يمكن أن تغفل عينه وهو إلى جواره ، هل يأمن أن تبدر منه عن غير قصد هفوة ، أو تصدر من غير وعى همسة أو لمسة يدفع ثمنها باهظا . حانت منه التفاتة إليه فرآه مسبل العينين مغضن الجبين ، متعثر التنفس ، استرد عينيه بسرعة وقد انتابه الإشفاق : "تم واطمئن ، لست في حاجة إلى أن تصدر تكليفا لى وإن كان مجرد صدوره منك شرفا ، أعرف واجبى حتى لو اضطرنى إلى أن أستيقظ طوال الوقت ، فأنت رأسنا

وقدرنا ، في رحابك أعيش وبقوتك أعمل ، ليتهم ينتجون في وقت قريب الجهاز الذى حدثونا عنه ، القادر على نقل الأفكار من رأس إلى رأس والمشاعر من نفس إلى نفس ، إذن لاستخدمته معك لتدرك إخلاصى لك فلا تستمع فيّ إلى واش أو حاقد" .

تعلقت نظرته بأعلى ، وما لبثت أن أخذت تدور فيما حوله وفيما تحت قدميه محاذرا أن يلتفت إلى معاليه ، فلما شرعت الانفجارات الصوتية الصادرة عنه تنتظم واطمأن إلى أنه استغرق في راحته راحت عينه تسترق النظر بعد أن يلقى على ما حوله نظرة شاملة حتى يطمئن "يجب أن يسرعوا بإنتاج هذا الجهاز ، لو كان الآن بين يديك ما كنت تحتاج إلى كل هذا العناء، يكفى أن ترسل أنت ويستقبل هو ويصبح كل شئ تحت السيطرة .. جهاز مهم .. مهم جدا .. كلمة مهم ليست هى الوصف المناسب ، إنه جهاز في غاية الخطورة، سيحدث انقلابا كاملا في مجالات كثيرة في النشاط الإنسانى.. هل ممكن استخدامه في عمليات التحقيق والتحرى والتخطيط وغيرها .. نحن حتى الآن حددنا ثلاثة وعشرين مجالا للاستفادة منه وفي طليعتها التحقيق ، تصور أنك لست بحاجة إلى س و ج ومراوغة وأكاذيب وتلفيقات لأن الجهاز ينقل كل شئ مباشرة من الرأس المرسل إلى الرأس المستقبل .. هذه معجزة .. لا معجزة هنالك ، لقد تعودتم في بلدكم على المبالغة ، المسألة مسألة علمية خالصة .. كيف .. كل شئ يقوم به المخ البشرى ، وعمليات المخ تتم وفقا لشفرة كهربية ، في مرحلة سابقة قمنا برصد هذه الشفرة ونحن الآن في مرحلة فك رموزها ، وحين تتم هذه المرحلة نكون قد قطعنا شوطاً كبيراً جداً .. هل يستغرق هذا وقتا طويلا .. أبدا .. أليس فك الشفرة مرتبطا باللغات .. مطلقا ، هذه نظرية قديمة تجاوزناها ، لا تحتاج رموز المخ إلى أى لغة ، لأنها مرحلة منفصلة عن كل لغة .. لا أفهم .. اللغة مجرد أداة اتصال خارجى ، مجرد وسيلة لإحداث تأثير مخى ، والمخ كما يتأثر بها يتأثر بمؤثرات أخرى غير

لغوية • ومن ناحية ثانية فإن اللغة تفقد وجودها بعد التأثير في المخ ، والمخ لا يحتفظ بها كنشاط لغوى وإنما يترجمها إلى شفرته الكهربية الخاصـــة •• صبرك عليّ ، هل أطمع في مزيد من الشرح •• المسألة ببساطة أننـــا لـــن نهتم بالأدوات التى تحدث التأثير ، سنخترق مباشرة لننقل الآثار الموجـودة : المعلومات ، الأفكار ، الخبرات ، المشاعر ، وحتى الأوامر المنظمة لعمـــل الأجهزة المختلفة داخل الجسم نفسه •• من غير كلام•• من غير ليه وازاى ، لا داعى لأن تشغل فكرك بالأساس العلمى لعمل الجهاز ، يكفى بعد ذلك أن تعرف كيف تقوم بتشغيله •• أنا •• نعم أنت بنفسك ، لأنه جهاز لا تنفـــع معه واسطة • لابد أن تلبس الطاسة بنفسك حتـــى تحصـــل علـــى النتـــائج المطلوبة" التفت إليه بحذر يتأكد من استغراقه وهو يتمتم لنفســـه : "علشـــان عيونك نلبس الطاسة " •

لما رآها مقبلة عليه وعيناها لا تتصرفان عنه تشكك وحين همست في أذنه:

- **بعد إذنك يا فندم •**

ارتفعت يداه معا كأنهما تعلنان براءته من تهمة الاستدعاء • صدحت بســـمة في عينيها وأشرقت الأسنان اللؤلؤية ببريق الماس وغمغم العصفور يغرد :

- **هذه المرة سعادتك المطلوب •**

- **أين ؟**

أشارت إلى الخلف وهو تقول :

- **في درجة رجال الأعمال •**

- **من ؟**

هل كانت غمزة تلك التى شعت في نظرتها وهى تجيب :

- **من ذوات العيون الزرق ، قالت إنها صديقة •**

وهل كان ارتفاع حاجبيه تعبيرا عن دهشة حقيقية حين قال وهو يحدق فـــي عينيها :

- **ليس لى صديقات من هذا النوع ، أفضل العيون العسلية •**

غرغر صوتها كعصفورة مستها نشوة الغزل ، أدركه خوف من أن يكون قد استيقظ فالتفت ليطمئن فوجده مستغرقا في عالمه لم يبرحه - التفت إليها وسألها برقة :

- هل يمكن أن أطلب منك خدمة ؟

- تحت أمرك ٠

قالتها بعفوية العادة لكنها استدركت :

- بشرط أن تكون خدمة مشروعة ٠

تمالك نفسه حتى لا ينفجر ضاحكا وهو يعقب :

- ذهب تفكيرك بعيدا جدا ، أريد فقط أن تحضريها إلى هنا ٠

ردت بهدوء ، وقد استعادت طبيعتها :

- هذا ممنوع ٠

وأشارت إلى معالى الباشا وهى تضيف :

- هل تحب أن نخالف أوامر معاليه ٠

رد بسرعة كأنما مسه الفزع :

- أبدا ، مطلقا ٠

وأضاف مفسرا :

- أخشى فقط أن يستيقظ فلا يجدني معه إلى جواره ٠

وصمت برهة مفكراً قبل أن يحدق من جديد في عينيها :

- هل يمكن أن تكون عينك على معاليك فإذا رأيته على وشك اليقظة أبلغتنى ٠

- اطمئن لن تتأخر طويلا هناك ٠

- كيف عرفت ؟

- شكلها وحش ودمها تقيل ٠

نهض برفق ليتسلل خارجا من مقعده . وقف أمامها لحظة ينظر إليها بثقــة، مست ذراعه صدرها وهو يسير باعتداد في الاتجاه العكسي ، كتمت ضحكــة كادت تنفجر وهي تشير بإصبعها له إلى الاتجاه الآخر .

- ٥ -

ما كاد يتجاوز الفاصل بين الدرجة الأولى ودرجة رجال الأعمال حتى وقعت عيناها عليه ، تأملته مبتسمة وهو يتفحص المقاعد باحثا برغم أنها كانت جالسة في المقعد الأول ، أحست بأنه تأخر في اكتشافها لتركيزه على المقاعد الخلفية فهزت برفق ذراعه فالتفت ليجدها ، ارتفع صوته في بهجة :

- **مش معقول ٠**

- **مفاجأة ؟ ٠٠٠ أكيد ٠**

- **مفاجأة سعيدة ٠**

- **لا بد أن تكون كذلك ٠**

وأضافت بثقة :

- **إننى أضفى السعادة دائما على من يلتقى بى ٠**

صمتت لحظة ترقب أثر عبارتها عليه قبل أن تقول :

- **قطعا لم تتوقع أن ترانى هنا ٠**

تجاوز كلماتها ليقول :

- **كنت واثقا أننى سأراك مرة أخرى ٠**

حدقت فيه لتسأل :

- لماذا ؟

- هل نسيت أنك قلت لى ونحن في جلسة المباحثات أنك تدرسين في القاهرة .

- وماذا في ذلك ، ألا يجوز أن أكون قد أنهيت دراستى .

- ربما ، ولكن حتى لو أنهيتها لابد من أن تعودى ، لأن من يشرب من ماء النيل لابد أن يعود إليه مرة أخرى .

قالت باستهانة :

- هذا كلام يقال عادة للسياح .

وتابعت وهى تحدق في عينيه :

- وأظن أنك لا تؤمن بمثل هذه الخرافات .

"دمك تقيل فعلا" جالت في خاطره وهو صامت فأضافت :

- ثم إننى في القاهرة لا أشرب من ماء النيل .

رفع حاجبيه في دهشة لم تعبأ بها واستمرت :

- آخر بحث تم فيه تحليل مياهه أكد أن نسبة التلوث فيه بلغت حد الخطر .

هل أراد أن يبدد جو الكآبة الذى أحس به يخيم حين قال :

- الحمد لله ، فأنا أيضا لم أعد أشرب منه عادة .

ولوح بإصبعه منبها وهو يصطنع لهجة يمتزج فيها الجد والدعاية :

- لكننى أحذرك ، فمثل هذا الكلام يسيئ إلى المصريين .

أغفلت دعابته وقالت بهدوء :

- سيدى الجنرال ، الحقائق لا تسيئ أبدا ، في الحقيقة لا تسيئ غير الأكاذيب .

"دمك ثقيل فعلا يا بنت الكلب ، هو أنا كنت ناقصك ، تقولين هذا الكلام لصحفى غبى فيتصور أنه اعتراف رسمى" ، رد بحزم وقد اكتسى وجهه طابع الصرامة :

- سيدتى ، نؤكد لك أن ما قلته غير صحيح مطلقا ، فضلا عن أنه يسيئ إلى مصر إساءة بالغة و . . .

فوجئت بتحوله ، لعله أساء فهمها ، قاطعته لتوضح :

- سيدى الجنرال ، تأكد من أننى لا يمكن أن أسيئ إلى مصر ، إننى خريجة هارفارد ودرست علم المصريات وعاشقة في المتروبوليتان والبريتش ميوزيم والبر الغربى ، وأستطيع أن أحدثك ساعات طويلة عن الحضارة المصرية .

استسلم للابتسام بعد أن هدأته العبارات وإن لم يدرك صلة بعض الكلمات بالموضوع . "الحزم أفضل حتى مع هؤلاء الناس ، ستتكلمين عن الهرم وأبو الهول لتثبتى أنك مثقفة ، نفس الأشكال المعقدة التى لا تكاد ترى العين الحمراء حتى تتراجع معلنة التوبة" .

لم يمنعه الابتسام من أن يقول بحزم :

- سيدتى ليس الوقت مناسبا للحديث عن الهرم وأبو الهول .

قاطعته في دهشة :

- لماذا نتحدث عن الهرم وأبو الهول .

قال وهو ينظر إليها باستخفاف :

- لتثبتى لى عظمة الحضارة المصرية .

نظرت إليه صامتة ، لا يمكن أن يكون هذا هو مبلغ علمه بما لحضارة بلده من شموخ ، لابد أنه يستهين بالمرأة التى تحدثه .

- سيدى الجنرال ، عظمة الحضارة المصرية ليست في حاجة إلى الإشارة إلى الأهرام وأبو الهول ، هذا كلام العامة ، أما المتخصصون فيعرفون الأسس الفلسفية للحضارة المصرية وتقديسها للإنسان والحياة والبيئة ، وما ترتب على ذلك من إنجازات في مختلف المجالات وأبرزها الطب والهندسة والفلك ، وأستطيع أن أحدثك عن الحقائق العشر الأساسية في كل علم من هذه العلوم.

وصمتت برهة لتضيف :

- سيدى الجنرال ، أرجو ألا تستهين بى ثانية .

"يا بنت الكلب من أى داهية أتيت ، تريدين أن تخلقى لى مشكلة بلا سبب ، تقلبين الأوضاع وتتهمينني بالإساءة إليك ، ومن يدرى ربما تدعين أننى قد أهنت بلدك أيضا" .

تمتم شاردا :

- سيدتى ، لا يمكن أن يخطر على بالى أن أستهين بك بأى شكل ولا أن أسيئ إلى بلدك الصديق .

لكن المرأة لم تستمع إليه واستمرت تتحدث دون انقطاع ، إنها تبدو كالمحتجة ، وتردد في حديثها كلمات غريبة لا رابط بينها ، زوسر وإيمحتب وهليوبوليس وقفط وأبنوب وممفيس وتاييس وأبيرس وبلغ بها الانفعال حد الخلط بين تقاليد الدولة القديمة وأسس الدولة الحديثة حتى ناله الضجر .

"واضح أن المرأة إما سكرى أو مجنونة فهى تخلط كل شيئ ، ما علاقة هليوبوليس وقفط ، وما هذه الهلوسة في ذكر أسماء لم يسمع بها من قبل .

ما كادت تتوقف لحظة تبلع فيها ريقها حتى قال مقاطعا :

- تأكدى يا سيدتى أننا نبذل كل ما في وسعنا من أجل بناء الدولة الحديثة .

نظرت إليه في دهشة فاستمر حتى يقطع استرسالها :

- لقد أنجزنا البنية التحتية ، ويتم الآن وضع الخطط للسنوات العشرين القادمة ، وتوجيهات القيادة أن يتم البدء في تنفيذ هذه الخطط ابتداء من العام المقبل . نحن نعرف أن هناك بعض المشكلات في بعض المناطق التى تفضلت بالإشارة إليها ، مثل هليو بوليس وأبنوب وقفط و ... ماذا ؟

توقف لحظة ليسألها :

- لقد ذكرت أسماء أخرى

قالت دون أن يبدو عليها أى انفعال :

- تاييس وأبيرس .

تابع مؤكدا :

- نعم ، تاييس وأبيرس وغيرها من مدن الصعيد وقراه ، لقد ظلم الصعيد كثيرا في الماضى لكن القيادة على وعى كامل بأهمية القيام بتطويره ، والأوامر صريحة في أن يكون هذان البلدان بالذات .

صمت من جديد ، "الله يخرب بيتك" لماذا اخترت هذه الأسماء الغريبة" .

أدركته هذه المرة أيضا وهى تبتسم :

- تاييس وأبيرس .

- نعم ، تاييس وأبيرس ، الأوامر صريحة في إدخال الخدمات الكاملة فيهما في أول سنة من سنوات الخطة الخمسية الأولى .

وتوقف لحظة ليميل عليها هامسا :

- أقول لك سرا لا يعرفه أحد .

هزت رأسها مؤكدة ، فقال بصوت خفيض :

- لقد كان اهتمام القيادة بهذين البلدين بالذات كبيرا جدا حتى إنه أصدر توجيهاته بأن يكونا أولى البلاد التى يدخلها مشروع الصرف الصحى العملاق .

- شيئ رائع ، هل أستطيع أن أكتب عن ذلك يا سيدى الجنرال .

اصطنع الدهشة لحظة ثم قال :

- بالرغم من أنه سر إلا أننى أعرف أن الصحفيين لا يحتفظون بالأسرار .

- وكيف عرفت أننى صحفية .

- أكيد أنت لم تعرفى مصر جيدا برغم عيشتك فيها فترة ، إننا نتميز ببعد النظر .

قالها بثقة وحسم ، ردت باستسلام ظاهر :

- عندك حق ، كما تقولون في بلدكم ، فأنت رجل شديد الذكاء يا سيدى الجنرال ، إنك عبقرى .

همّ واقفا وهو يمدّ إليها يده مصافحا ، استبقت كفه في راحتها ونظرت إليه قائلة :

- **ما زال بيننا حديث طويل سيدى الجنرال ٠**

رد وهو يسحب يده :

- **آمل أن نلتقى في القاهرة ٠**

هزت رأسها مؤكدة :

- **كثيرا ، سيدى الجنرال ، كثيرا ٠**

"بنت الكلب تتوقع أن تراك ثانية لتصدع رأسك" تابعت :

- **لقد كلفت بأن أكون ضابط الاتصال معكم ٠**

توقف عن إتمام حركته كأنما انتابه الضيق لحظة ، "إنه قدرك السيئ ، لكن ماذا تستطيع أن تفعل مجنونة مثلها أمام عبقريتك لقد سيطرت عليها تماما" ٠

- **وأتوقع أن تتعاون معا سيدى الجنرال ٠**

قال في استعلاء ممزوج باستهانة :

- **بالتأكيد ٠**

وسرعان ما أضاف متلطفا ربما ليخفف من برودة لهجته :

- **لقد استرحت إليك تماما ٠**

انتشرت الابتسامة على وجهها ، وردت بسعادة حقيقية على تحيته الكريمة :

- **في الحقيقة أنا التى في غاية السعادة للتعرف بك عن قرب يا سيدى الجنرال ٠**

ووقفت تشد على يده بحرارة ٠ وظلت واقفة ترقبه وهو يعود إلى موقعه والابتسامة لم تغادر وجهها ٠ وهى تقول لنفسها : "الأمور أسهل بكثير مما كنت تتوقعين" ٠

- ٦ -

أخرجت حلمة الرضّاعة من بين شفتيها لتبصق بين قدميها وقالت بقرف :

- أعوذ بالله ، الرضعة حمضت ٠

التفت إليها زوجها مؤنبا وهمس :

- ما هذا ؟ أنت لست في نيوجرسى ٠

ردت بضيق لم تبال معه من أن يسمع المجاورون صوتها :

- بدلا من الكلام دور على شوية لبن للولد ٠

هل سمعها أحد ؟ دارت عيناه فيمن حوله بينما تابعت محذرة وصوتها يتـــابع ارتفاعه مؤذنا بنشوب معركة جديدة :

- سيصحو الولد جائعا ، تصرف ٠

مال تجاهها هامسا في محاولة إجهاض :

- بالتأكيد معك بعض الوجبات الجاهزة ، أعطتك أمه الكثير منها ، فتشـــى في شنطته ٠

وبدلا من أن يجهض غضبتها زادت اشتعالا ، التفتت إليه بعنف تقرعه :

– هـــو أنا لحقت ، هو أنت ادتنى فرصـــة ، حرام عليك ، روح يا شـــيخ منك لله .

كان واضحا أن معركة جديدة قد بدأت . وأنه لن يملك فيها في هذه المـــرة أيضا غير الانسحاب مؤجلا بحث أسباب الهزيمة لفرصة أخرى .

"ستة أشهر وأنت تراوغين ، وثلاثة وأنت تستعدين ، لماذا ؟ أنت يـــا مـــن تتعذبين شوقا لكل شيئ في الوطن لماذا تحرصين على البقاء في الغربة ؟!

أنت يا من تحببين إلى حافة الجنون أمك وإخوتك ، أنت يا من جعلتنى أسـمى الأيام الأولى التى فارقتهم فيها عام الأحزان . أنت يا من بذلت كل جـــهدى للتخفيف عنك إذ كنت أحس بك برغم تجلدك الظاهر تمتلئين حزنا نبيلا ليـس له حدود ، تنزفين في الأعماق دما لا يجف ، تفيض عيونـــك أســى بغـير شاطئ، ألم تكونى أنت حافزى الأكبر في سرعة إنهاء دراستى حتى أخفــف عنك بالعودة الظافرة إلى الأحباب ، ماذا جرى لك .. "مبروك يـــا حبيـب قلبى.. مبروك لك أنت ، أنت صاحبـــة الفضـــل الأول ، أنـــت حـــافزى وملهمتى.. يعنى لى نصف الدكتوراه .. الدكتوراه كلها لـــك وصاحبـــها معهـــا .. أنا سعيدة جدا .. وأنا سعيد جداً .. أنا سعيدة لأنك ســـعيد .. وأنا سعيـــد لأنى سأحقق أملك الذى أعـــرفه منذ جئت أنت إلى هنا .. مـــا هو .. أن نعود في أسرع وقت إلى كل الأحباب .. علينا أولا أن نجـــهز أنفسنـــا .. طبعـــا . لأن العودة إلى هنا بعـــد ذلـــك نـــادرة ، ومرهونـــة بالظروف .. أى تجهيز هذا الذى يحتاج إلى كل هذه الشهور .. وأنت ماذا تخسر ، إنك تدرس في الجامعة وتكسب لماذا الاستعجال . على الأقل حيـــن نعود نعود مستريحين ، الأحوال هناك سيئة ، ولا يصح أن نعود لنمد أيدينـــا لأحد .. لن نمد الأيدى سأكون مدرسا في الجامعة .. مدرس عربـــى يـــا حسرة ، لا فاتح مكتب ولا له عيادة ، ناقص يقول لله يامحسنين .. عيـــب ، عيب فعلا .. التطورات الاقتصادية قلبت الأوضـــاع وأخلـــت بـــالموازين وحولت قيم المجتمع، لكن هذا كله لن يستمر ، هذه كلها ظواهـــر مرضيـــة

زائلة مهما بدت مستقرة ، مهما كانت شراستها ، وكلما ازدادت حدة دل ذلك على اقتراب الفجر وانبلاج النور • الميلاد قادم لا محالة ، هذه المرة سيولد الطفل صبيا ، سيولد عفيا ، قامته فوق كل قامة ، رأسه على كل رأس ، في يده قبضة موسى وعصاه ، في فمه حكمة إيزيس وإخناتون ، يأتلق النور على مفرقه ، يردد الكون صدى صيحته • هذا المرة أبدا لن تسمحوا للكلاب المسعورة أن تحيا ، هذه المرة أبدا لن يكونوا ، دنس الأرض لابد زائل ، فليحرق بالنار المستعرة •• يا أحبابنا في شتى الأصقاع ••• الطفل الباهر جاء ، انشقت الظلمة عنه وجاء ، يرفل في حبات القلب • يملأ حبات الأعين ، يختال فوق الفوق ، يزرع نور الشمس •• يصدح بالأنغام القدسية ••• لماذا تضيع وقتك في كتابة أشياء غير مفهومة ولا فائدة فيها •• لماذا تضيعين وقتك في قراءتها ، لا شأن لك بها •• هل هى من بين أسرارك التى بدأت تخفيها ، ليس عندى أسرار ، ليس عندى غير الحنين الذى زاد واشتد ، وصار أقوى مما أحتمل ، فلا تهتمى إلا بالعودة •• أنا مثلك يستبد بى الشوق •• أبدا لست مثلى ، فيك أشياء جديدة أكتشفها كل يوم •• الزورق في النهر الحجرى المجنون يغفو ويعربد ، يقطر لبنا أسود ، صلدا تطعمه الريح ، تصهل خيل زرقاء ، تحت العشب الأحمر ، تطعن قلب الموت في عين الأشواك ، يمنحها البركة ، تغسل نار الزقوم العذبة بحميم أصفر ، مجدوع الرأس ، كى يزهر في الجنة" •

- شايفة ، والنبى أنا لى الجنة ، الصبر يارب ، تصورى أقول له دوّر على شوية لبن للولد الغلبان اللى ادته لنا أمه أمانة يقوم ينام وما يسألش •

- يا شيخة حرام عليك ، يمكن تعبان ، لكن قولى لى ، ولد إيه اللى أمانة ، هم بيصرفوا عيال أمانات اليومين دول •

- أى والنبى يا ختى ، واحدة وجوزها من زمايله بيدرسو الاثنين وتوقعوا في عرضنا لما عرفوا إن احنا مسافرين ، قال ايه الواد معطلهم ، قال إيه تبعته لأمها عشان يعرفوا يتفرغوا للمذاكرة والشغل ، وبعدين تبعت تاخذه•

انخفض الصوت المألوف وهو يتابع :

- قال تعبان قال ، هو لسه شاف تعب ، بكره يعرف التعب بصحيح .

عرف طرف الحوار فلم يشأ أن يفتح عينيه ، رجح أن حديثها محاولة استكشافية لاستفزازه لبدء معركة جديدة قرر أن يفشلها ، لما اقتصرت المناوشات الأولية على طرف واحد وجدت نفسها مضطرة أن تواصل مع جارتها بعد أن لم يعد أمامها بديل .

- والنبى عايشين زى الفل ، وهو بسم الله ما شاء الله مكانته كبيرة في الجامعة هنا وبياخد مرتب محترم يسيب دا كله ويطق في دماغه إنه يرجع.

- . . .

- والنبى يا ختى سألته ، ليه يا حبيبى ، احكى لى يا روحى ، فضفض يا نور عينيه ، حد مزعلك حد مضايقك ، يقول لى كلام هايف مالوش طعم عن السمك والميه والزرع والطين والهواء والشمس ومش عارفه إيه ، طب يا حبيبى هنا برضه أحلى سمك وأحلى ميه ، وعندنا هنا جنينة ازرع فيها الزرع اللى يعجبك ، دا أنا ما صدقت أخدت على الناس هنا وقلت حنعيش بأه. تقوم تعمل كده ليه يا ربى .

- . . .

- اللى طالع عليه ياختى لازم نرجع ، أقول له كل زمايلك أهم ، بص لهم ، أهو اللى حيقعد هنا نهائى ويستقر ، واللى حيرجع منهم عامل حسابه على حاجة تسنده ، مكتب محاسبة والا مكتب هندسة إن شاء الله حتى مزرعة فراخ ، الدكتور منهم حيفتح عيادة والا معمل تحليل ، واحنا ياخويه حنتسند بإيه والا على إيه ، يقوم يقول لى حفتح مدرسة ، مدرسة إيه يا خويا ودى حتاخد منها أد ايه ، يقول ، شوفى المصيبة اللى حطت على دماغ أختك ، المدرسة دى أنا فيها اللى حدفع ، مش حاخد ، شفت حوسة زى دى .

- . . .

- والنبى يا ختى ناقصنا كل حاجة ، الشقة مش نافعة ، قوضتين في دار السلام لامية ولا نور ولا حتى نسمة هواء ، وأنا نيلتها وقلت للمتعوسة أختى تتجوز فيها ، شقة إيه بأه ، ما راحت خلاص .

- . . .

- عفش إيه ، إنت عارفة الظروف لما تحكم ، معيد وعاوز يسافر ومستعجل ، والقرشين اللى يدوبك يجيبوا قوضة أبويه قال ححطهم لك في البنك لحد ما ترجعى ، وحيحط اللى يقدره عليه ربنا ، لا حط ده ولا ده وقال إنه كان بيجوز أختى . طب ازاى أطالبه وأنا عارفه إنهم عايشين بالقدرة .

- . . .

- والنبى يا ختى حطاه في نن عينيه ، وشايلاه على كفوف الراحة ، وقايدة له العشرة .

- . . .

- عارفة لو بيشتكى من حاجة كنت أصبر وستحمل إن شاء الله يكون عظم في قفة . . أعمل إيه يا ربى .

- . . .

- أنا حجنن والنبى يا ختى ، دا حاله أصعب من حالنا ، أبوه مات وهوه في بطن أمه ، شافت المر عشان تربيه هو وخواته ، كانت بتغسل العربيات بالليل في جراش عشان تلاقى بياته ، وفي النهار على فيض الكريم ، يوم لقمة ويوم مفيش ، وتقول لك أنى صابرة بس نعلمهم .

- . . .

- والنبى يا ختى جدع وراجل ، ودا ممكن يكسب دهب ، آه لو شفتيه مع زمايله ، بيكلموه ازاى ويحترموه ازاى ، تقولى إنه كبيرهم مع أنه ممكن يكون أصغر واحد فيهم ، أقول إيه الحلو ما يكملش .

- . . .

- أبدا بحس إنه ما بيكرهنيش ، يمكن ساعات حتى بيحسسنى إنه بيمــوت فيه، بس يا خسارة ٠٠ ساعات ساعات ٠

- . . .

- ما كشفتش وهو كمان ما كشفش، لكن كنت بستعمل الحبــوب ، وكــان بيقول حنستعجل على إيه احنا قدامنا العمر كله ، حنجيــب دلوقــت عيــال عشان نحتاس بيهم ٠

- . . .

- والنبى يا ختى عندك حق ، لقيته مرة بيكتب حاجات من ورايـــه ، لمــا سهيته وقريتها لقيته بيتكلم عن عيل ، ولما سألته عنه قال لى ما تــلخديش في بالك ٠

- . . .

- جايز برضه ، خالته كان عينها منه ، وعندها بنت زمان الوقات فاتـــها القطر ، كنا سايبنها في الدبلوم ، بتاعة كده ما تعرفيش لــــها طــول مــن عرض، مين عارف إيه اللى حصل ، إنما فكرك يا ختى لو عملت عمل بقدر يعدى البحر ٠

- . . .

- يا لهوى ، ياحوستى ، يا وقعتى اللى زى الهباب ، ميت مليون مليـــون نيلة على دماغك ، دا احنا ممعاناش حتى اللى يوصلنا لحــد ســيدى عبــد الرحيم مش يرجعنا أمريكا تانى ، حعمل ايه دلوقت ياربى ، يعنى لــو كنــا قعدنا يومين مش كانوا ينفعوا ٠

- كله مقدر ومكتوب ، والمكتوب ما منوش مهروب ، عليه العوض ٠٠

- اصح يا خويه هات للواد رضعه لحسن صحى ، أهو دا اللى جالنــا مــن قرايبك٠ والنبى ياختى ما قصرنا في حد منهم ، لكن تقولى إيـــه ، ربنــا يجازى اللى كان السبب ، حسبى الله ونعم الوكيل فيهم ٠

- . . .

- ٧ -

ما كاد يصل إلى المقعد الذى أرشدته إليه حتى تجاوزه ليجلس إلـــى جـــوار النافذة قبل أن يلتفت إليها قائلا بصوت ضاحك وهو يصطنع الجد :

- فنكش هبوريا ٠

لم تفهم العبارة فظلت واقفة صامتة ، تابع وهو يمدد ساقيه حتـــى آخرهمـــا ويشد الحزام على وسطه :

- شفنكر هبوللى ٠

أيقنت أنه يهرج فأشاحت بوجهها وهى تتصرف ، جلجل صوته من ورائها :

- "قشطة ، وحياة الدونتس قشطة ٠

- كفاية ، الملط في الشفت

أتاه الصوت من أمامه كأنما يأمره ، عرف صاحبه فرد بصوت متوهج :

- حنكور سبعبع ، عشان خاطر عيون اللفت ٠

استغرقته تلقائيا استعدادات عملية الإقلاع وقد ركز بصره علـــى النـــافذة ، وذهنه يقوم بعملية تحليل تلقائى كما تعود منذ سنوات ٠٠ عمليـــة التســـخين قصيرة بعض الشيئ ربما كانت قد بدأت قبل الركوب ، هذه الزقزقة الخافتة

صادرة عن مجموعة الحركة ، لقد بدأ يتحرك ، المسافة أطول مما ينبغي لكن لا ضرر على أى حال ، لقد هدأ قليلا استعدادا للانطلاق ، انطلاقة جيدة لولا أن الزاوية أوسع مما يجب بالنسبة لطائرة مدنية ، لعله تدرب في السلاح، توكلنا على الله .

وما لبث لحظات حتى فك الحزام لينتقل إلى الكرسى البعيد عن النافذة، يرقب الحركة في الممر المجاور بامتداد الطائرة ، بعد دقائق كانت الحركة قد تصاعدت في الممر الضيق الذى يضطر المتحركون فيه إلى الاحتكاك عند الالتقاء ، ابتسم وقد خطرت له خاطرة ، ماذا لو التقى اثنان من الوزن الثقيل ، اتسعت ابتسامته حين رأى بالفعل رجلا ضخما يملأ الممر ، تابعه ببصره وهو يتجه إلى منطقة الخدمة ، اضطرت المضيفة التى التقت به إلى التنحى بدخولها بين صفين .. ساقاها الآن بين أخريين يماثلانها .. ترى أى المجموعتين أسرع في الحالات العادية استجابة للضغط الجوى .

- من فضلك يا عمو . هل ممكن أقعد إلى جوار النافذة .

فاجأه الصوت الرقيق فالتفت إلى مصدره ، صبية ممتلئة في نحو التاسعة ، مجدولة الشعر الأسود تاركا فرنشة رشيقة على جبينها . الابتسامة الأخاذة على وجهها الأسمر أظهرت الغمازة الآسرة فوق خدها الأيسر ، هل أراد أن يداعبها حين قال :

- ليه .

كأنما فاجأها السؤال فصمتت تفكر ، تابع وهو يفسح لها طريقا إلى المقعد الخالى :

- لازم عاوزة تشمى الهواء .

جلست برقة دون أن تحدث صوتا ما ، بدا أنها منهمكة في النظر إلى النافذة حين باغتته :

- من فضلك يا عمو ، أحب أقول لحضرتك أنا مش قاعدة علشان أشم الهواء ، أنا قاعدة علشان أتفرج على السحاب .

التفت إليها فوجدها جادة ، مست البراءة قلبه فألقى برأسه إلى الخلف وهو يستغرق في ضحكة صافية ، ومستها الضحكة بصدقها فصدحت كبلبل أشرقت عليه الشمس ووجد متعة أن يشاركها حوارا يقطع به جزءا من الوقت الطويل .

- ما اسمك يا أمورة .

- سارعت بغير تحفظ .

- بلبل .

وكأنما أحست بحرج فاستدركت :

- آسفة يا عمو ، لبنى .

- من أين ؟

صمتت برهة كأنما تبحث عن إجابة ، سارع ليعينها :

- من مصر .

واصلت صمتها . استمر متصورا أنه يساعدها :

- أنت مصرية .

ردت بهدوء ورأسها يهتز برقة بين كتفيها وسبابتها على شفتيها :

- نص نص .

ظن أن شيئا من سوء الفهم أصابها ، بدأ يستعد للقيام بدوره شارحا :

- هذه المسائل ليس فيها نص نص ولا ربع ربع . إما أن يكون الواحد مصريا أو لا يكون . وأنت بالتأكيد مصرية ، قولى معى أنا مصرية .

قاطعته :

- آسفة يا عمو ، حضرتك مش فاهمنى ، أقصد أن أمى مصرية وأبى غير مصرى .

غمغم كالمعتذر .

- آه ، فهمت .

حاول أن يتجاوز عثرته بسرعة ، فتابع شبه متأكد :

- أنت أمريكية ؟.
ردت باقتضاب والدهشة على وجهها من تتابع أخطائه :
- لا يا عمو .
واصل وقد بدت له أشبه بلغز طريف :
- كنت في زيارة لأمريكا ؟ .
تابعت بالدهشة نفسها :
- لا يا عمو .
- طيب أنت تذهبين لزيارة مصر ؟ .
-لا يا عمو ؟
بدا كمن يعلن استسلامه في اللعبة حين قال ضاحكا :
- أنت حدوتة ، احكى لى واحدة واحدة ، بالتفصيل الممل .

من خلال الأسئلة المستطلعة لا القاطعة عرف أنها لا لغز ولا حدوته ، طالب عربى فقير يدرس في القاهرة ، تساعده أسرة مجاورة كأنه ابنها ، يتزوج إحدى بناتها ، يستقر مع العروس الصغيرة وينجز ويتفوق ، فتقرر بلده أن يكمل دراسته في أمريكا ، يذهب ومعه العروس التى صارت أما لبنتين وولد ، وفي أمريكا يواصل استقراره حتى يتعرف عليها ، امرأة بيضاء وخط الشيب رأسها :

- قلت اسمها مسز ايه ؟ .
- مسز داونر .
- كانت سيدة شريرة ؟
- لا يا عمو
- كانت أمك تكرهها ؟
- لا ياعمو ، أمى كانت تقول لأبى إنها لا تكرهها ، لكن لا تحب لبناتها أن يصحبن مثلها .
- وأنت ؟ ما رأيك فيها ؟

- إنها لطيفة جدا ، تقبلنا جميعا وتحضر معها لنا الشيكولاتة كلما حضرت في الويك إند لزيارتنا أو للنوم عندنا .

- كانت تنام عندكم ؟

- أحيانا ، وكانت تنام مع أمي ، أما أبي فكان ينام معنا أو على الشيرلونج في الهول ، لكن أمي كانت دائما تصرخ فيه مع أننا كنا نقول لها إننا سعداء بوجودها معنا .

- لماذا ؟

- تقول له لا أريدها أن تشرب في البيت ولا أن تخلع ملابسها عندنا ، فالمرأة لا تخلع ملابسها إلا في بيتها .

- لماذا كنتم سعداء بها .

- لقد كانت لطيفة جداً ، كانت تحضر الشيكولاتة ، وعلمتنا أشياء كثيرة جعلتنا نتفوق فيها ، الموسيقى ، والغناء ، والرقص ، والسباحة ، حتى الصيد تعلمناه منها .

- الصيد ! ماذا كنتم تصطادون ؟

عاتبته نظرتها الشقية :

- الأسود طبعا .

وعاتبتها نظرته الجادة :

- أكيد ، لابد أنكم كنتم تصطادونها بالصواريخ .

كركر البلبل :

- هل صدقت يا عمو ، كنا نصطاد السمك .

- بالصواريخ أيضا ؟

أغرقهما الضحك فاستمر معابثا :

- أين كانت تعلمكم صيد السمك في حمام السباحة أو في حمام البيت ؟

استمرت الزقزقة محلقة بأجنحتها :

- في النهر طبعا ، حين كنا نذهب معها إلى الكوخ في الغابة في الفترة الأخيرة بعد أن لم تعد تحضر إلى بيتنا .

- أنتم إذن في زيارة لمصر ؟

عادت الشقية لمعابثته :

- ماذا تتوقع أنت يا عمو .

رد رافعا يديه كأنما يستسلم :

- لا أعرف .

- ولا أنا ، أبى يقول إنها زيارة قصيرة ، وأمى تقول إنها عودة نهائية .

تابعت وهى تنهض :

- ما رأيك أنت يا عمو ؟ .

- لا أعرف .

- فكر حتى أعود إليك .

قالتها وهى تغادر مقعدها منطلقة إلى أمها .

استغرق ، هل كان يتأملها أو كان يفكر في سؤالها حتى إنه لم يلتفت إلى الصوت الذى جاءه من المقعد الأمامى :

- الخلط بلط رشنجر .

فاضطر صاحبه أن يكرره ، وكأنما انتشلته العبارة الخاصة من غفوة فرد بعفوية :

- دا رأيك ؟

تابع صاحبها كأنما يؤكد :

- وهى فيها كلام تانى ، الزنبوع زبطبط مع الحبطبط ، خده الشكبللى وراح .

ارتفع صوته كأنما يوافقه :

- خد عمره وراح .

وأخذ يدندن بصوت خفيض باللحن وهو مغمض العينين .

لم يفطن إليها إلا بعد أن أتمت حصارها ، كانت تضع أحد كوعيها على ظهر المقعد الأمامي والآخر على ظهر مقعده هو ، وقد انحنت عليه ناظرة إليه ، عضلات الظهر المشدودة كأنما نحتتها يد مثال عبقري جعلها نموذجا لقوة التكوين الجسدى الأنثوى ، والبنطلون الجينز الشديد الضيق يجسد كل محتوياته فبدت مشرئبة تنتظر ،أما البلوزة الزرقاء التي انتهت أعلى السرة فقد كانت مفتوحة الأزرار العليا لتظهر أن النجدين وما بينهما وما حولهما دون وشاح ، محدثة ذلك التناغم الآسر بين لونها واللون الوردى الداكن الذى منحته الشمس للجسد الأبيض .

حين رفع عينيه إليها قالت كأنما تخبره فحسب :

- سأجلس هنا .

وأومأت برأسها إلى المقعد الذى كانت تشغله البنت ، ولم تنتظر حتى يزحزح ساقيه بل اقتحمت غير مبالية ، وما كادت تجلس حتى التفتت إليه قائلة بصوت ظللته بحة من طراز خاص ، لكنها آسرة :

- كابتن هيلين فيتزجرالد كيلر .

هز رأسه متمتما بتلقائية :

- أهلا .

تابعت كأنما لم تبال بتحيته :

- لا داعى لأن تقدم لى نفسك .

نظر إليها من جديد نظرة تجمع بين التساؤل والدهشة ، واصلت بهدوء :

- إنا نعرفكم جميعا واحدا واحدا حتى قبل أن تحضروا للتدريب في قاعدة نورث كارولينا .

زال التساؤل واتسعت الدهشة ، فاستمرت بنغمة كبرياء لا تخطئها أذن :

- إننى من المارينز ، وقد اختارتنا السى آى إيه لحراستكم أثناء التدريب .

لم تعد الدهشة محصورة في العينين بل شاركهما الصوت وهو يتساءل :

- حراستنا نحن ؟

ردت بثقة :

- لقد كانت هناك معلومات عن احتمال استهدافكم ٠

-استهدافنا نحن ؟

ابتسمت للمرة الأولى ، فتألقت الأسنان القوية البيضاء بيـــن الشــفتين الرقيقتين المصبوغتين باللون الأسود ٠ وكأنما أحست ذعره فأضافت :

- لكن كما ترى ، انتهت العملية ولم يحدث شيئ ٠

لم يعلق وكأنه غير مصدق لما يسمع ، وكأنما أرادت أن تؤكد لــــه أن كـــل الأمور أصبحت على ما يرام ، فقالت :

- ونظرا لنجاح المهمة فقد قررت القيادة منحنا مكافأة ، سنزور مصر فـــي إجازة لنستمتع فيها بكل شيئ من أسوان حتى الإسكندرية ، ومـــن ســـيناء حتى الواحات ٠

اضطر أن يتمتم مجاملة :

- جميل ، جميل جدا ٠

تساءلت وهى تربت على فخذه بألفة :

- هل تراها مكافأة مناسبة ٠

صمت مستغرقا ، فاستمرت تشرح له المناطق المحددة مســـتعينة بخريطـــة صغيرة أخرجتها من تحت حزامها وحين انتهت وضعت الخريطة في مكانها وهى تقول :

- يجب أن تساعدونا ٠

وكأنما أحست بأن في العبارة تجاوزا فسارعت تصحح :

- نحن نتوقع أن تساعدونا ٠

فلما رأته ما زال صامتا أضافت وهى تربت على فخذه بنفس الألفة :

- لقد أصبحنا أصدقاء ، أليس كذلك ؟ ٠

هز رأسه من غير أن ينبس ، تابعت غير مبالغة بصمتـــه كأنما اســـتخفتها نشوة :

- لى أصدقاء كثيرون ، فقد زرت مناطق كثيرة من العالم في الشرق الأوسط وفي وسط أوربا وفي آسيا الوسطى ، حتى إفريقيا لى فيها أصدقاء منذ زمن طويل .

هل كانت منغمسة في النشوة أو كانت قد أفاقت منها حين تساءلت محاولة أن تخرج به من دائرة الصمت :

- تلك الفتاة الصغيرة التى كنت تتحدث معها ، هل هى قريبتك ؟

غمغم دون تفكير :

- نعم .

قالت كأنما تجامله :

- يبدو أنها لطيفة ومثيرة جدا .

ابتسم وهو يؤكد :

- إنها في غاية الذكاء .

قالت بهدوء حذر :

- هل تسمح لى بالتعرف بها ؟

غمغم بنفس القدر من الهدوء :

- ولم لا .

أشرق وجهها فتابع :

- لماذا ؟

ردت وقد عاد إليها حذرها :

- هل لديك مانع من مداعبتها ؟

بدت الكلمة غير واضحة المعالم ، لكن في كل مجتمع لغاته الخاصة ، تابع غمغمته :

- ولم لا ؟

استغرقتها البهجة فقالت كأنما تحييه :

- كان ظنى منذ رأيت صورتك أنك رجل متفتح جدا .

هز رأسه مفكرا ، هل تمدح أم تذم ، تابعت :

- ويقيني أن المستنيرين وحدهم هم القادرون على اجتياز الموانع الصعبة محلقين عاليا ٠

قاده انتقالنا المفاجئ إلى استنتاج أنها بالتأكيد مختلة عقليا ، حتى إنه لم يلق بالا إلى تعقيبها :

- من المؤكد عندى الآن أنهم سمحوا لأمثالنا بدخول القوات المسلحة وإن لم يعلنوا عندكم هذا القرار ٠

وتابعت وهى تنظر إليه مؤكدة :

- على كل حال ليس الإعلان مهما في هذه المرحلة ، المهم هو القرار ، أما الإعلان عنه فسيأتى قطعا في وقت لاحق ٠

صمت وهى تنهض دون أن تنتظر منه تعقيبا ، فاجأه زميله الجالس أمامه ينتفض واقفا وكأنه انفجر وهو يقول بصوت عال وقد استبد به الغضب حتى تهدج صوته :

- رد على الشرموطة بنت الوسخة دى ٠

لم يفهم سببا لغضبه لكن زميله صرخ فيه :

- لو كنت في السلاح لرميتك في السجن ، رد يا بنى آدم ٠

انسلت المرأة بهدوء من بين الرجلين ، وحين التقت بالمضيفة التى كانت قادمة تستطلع ما يحدث قالت لها كالمهدئة :

- اطمئنى ، الغيرة مسألة معتادة في هذه الأحوال ، يبدو أنه فهم أننى أحاول مع صديقه ٠

وتحسست صدر المضيفة بلطف متظاهرة بأنها تربت عليها وهى تضيف :

- يمكنك أن تطمئنيه أيضا فأنا لا أهتم بهذا النوع ٠

واتسعت ابتسامتها وهى تقول :

- أنا لى اهتمامات أخرى أكثر أهمية مما يفكر فيه ٠

ومضت تفتش بعينيها بين الجالسين ٠

- ٨ -

- لو سمحت ، ممنوع .

رفع رأسه ليجد المضيفة توجه حديثها إليه مشيرة إلى جهاز اللابتوب الموضوع على ركبتيه ، لم يشأ أن يعطى المسألة أكثر مما تستحق من اهتمام فقال بهدوء :

- إنه مجرد لعبة .

تابعت المضيفة بحزم :

- حتى لو كان لعبة ، أى أجهزة ألكترونية ممنوعة .

أعاد النظر إليها مبتسما فتابعت شارحة :

- من الممكن أن يحدث ذبذبات تتداخل مع ذبذبات اللاسلكى في الطائرة .

قال بهدوء وهو يعود إلى جهازه :

- اطمئنى ، إنه لا يحدث ذبذبات من أى نوع ، لا ألكترونية ولا غير ألكترونية .

لم تجد فائدة من استمرار الحوار فانصرفت لا تخفى امتعاضها ، واستغرق هو في جهازه من جديد .

أخذ يتأمل شاشة الجهاز والبيانات التى تقدمها ، وما لبث أن رفع حافظة الجهاز الموضوعة أمام قدميه ليخرج من جيب جانبى فيها علبة صغيرة ، فتحها وأخرج منها اسطوانة السى دى الرقيقة ووضعها في موضعها في الجهاز وعاد إلى تأمله الذى استغرقه لدرجة أنه لم يفطن إلى المضيفة وهى تقدم له قطعة الحلوى فمد جاره يده يلتقطها وهو يقول ضاحكا:

– سيبك منه ، ما دام قد دخل في الشغل فلن يخرج منه إلا بعد أن نصل ، أنا جاهز .

تركته يتناولها وابتسامتها ترد على ضحكته معقبة بنغمة تجمع بين السخرية والاستخفاف .

– لازم الشغل واخد حقه معاه .

رد صاحبه بنفس النغمة :

– جدا جدا ، مكتشف عبقرى بأه .

وتسللت عيناه لترى ما على الشاشة الصغيرة للجهاز القابع فوق ركبتى زميله ، برغم صعوبة الرؤية التقط بعض البيانات "ما الذى يشغلك هذه المرة ، إنها البيانات المعروفة للتحليلات الرياضية لبعض التجارب التى سبق له أن تكلم عن بعض نتائجها ، لكن أى علاقة يمكن أن تجمع في دائرة واحدة بين نتائج البحوث المستجدة في المغناطيسية والجاذبية والكونية ، وما صلة هذا الخليط غير المتجانس من المعلومات بأبحاث أجريت في السفينة المدارية في الفضاء" رفع رأسه ليفكر في الاحتمالات التى يمكن أن تربط بين المعلومات التى يراها فلم يجد شيئا ، تمتم : "لم يبق إلا احتمال واحد ، أنه يجرب لعبته الجديدة ليعود فيملأ الدنيا صراخا عن ضرورة التحديث في القسم والمركز ، وأهمية شراء الأجهزة العلمية المتطورة حتى يعتقد كل الناس أنه العبقرى القادر على صنع المعجزات لولا نقص الأجهزة "استكان إلى هذا الاحتمال وكأنه رضى به ، لولا أن خاطرا بدأ يتسلل إليه . إذا كان يستطيع أن يقنع البعض عندنا بالألاعيب فكيف أقنعهم في المؤتمر العلمى ،

لقد شاهد بنفسه كيف كانوا يحترمون مداخلاته التى شارك بها ، وكيف دعوه ضمن عدد محدود جدا للاطلاع على بعض التجارب الجديدة التى يجرونها ، والأخطر كيف قدموا له وحده العرض المذهل بالعمل معهم تاركين له تحديد الأجر الذى يريده • تمتم لنفسه كأنما يواسيها : "إنها طريقته الخاصة ، ومن حسن الحظ أنها لم تنجح عندنا كما نجحت عندهم ، إنهم جميعا مجانين فعلا أما عندنا فما زال العقلاء فينا كثيرين ولله الحمد" •

- مشكلة •

ندت عنه برغمه وهو يغلق الجهاز مقطبا تاركا إياه على ركبتيه ، التفت إليه مستطلعا ولكنه لم يعبأ بالتفاتته ، ولم يعن حتى بالنظر إليه ، وجد نفسه يسأله :

- إيه الحكاية ؟

استمر صامتا واضعا راحته تحت ذقنه وسبابته تطرق بانتظام شفتيه المضمومين ، إنه يأبى أن يتكلم ، أغراه الصمت بمواصلة الإلحاح :

- سمعتك تقول كلمة مشكلة •

كأنما لم يسمع وظل ممعنا في الصمت • "الظاهرة مؤكدة والاكتشاف صار حقيقة ، لكن الجانب التطبيقى أكثر تعقيدا مما يبدو حتى الآن ، يجب أن يشترك معك أحد لأنه لا مجال مطلقا في مثل هذا الإنجاز لعمل فردى ، هناك رأيتهم من جنسيات مختلفة يعملون معا بتناسق في إطار رؤية كلية واحدة ، تخطط وتوزع الأدوار وتتابع وتنسق وتصحح وتوجه ، رأيت أعداء الأمس في المحطة المدارية فريقا واحدا يعمل بتنسيق كامل ، الكل في واحد ، لم لاتستعين به ليكون واحدا من فريق العمل الذى لن يتم الإنجاز إلا به ، برغم كل ما فيه فإن فيه شيئا يمكن أن يفيد ، على الأقل حتى لا يقف عقبة أمام الفريق" •

قال بتثاقل متردد يمنح نفسه فرصة للتفكير :

- البعد الخامس •

قاطعه :

- نحن نعرف الأبعاد الثلاثة ، فهل جعلتها أربعة وتبحث لها عن خامس .

"إنه بعيد عن الصورة تماما ، أنت مضطر لأن تشرح" :

- البعد الرابع هو الحيوية ، الطول والعرض والعمق مشتركة بين الأشـياء والكائنات الحية .

هل كان يسخرحين قاطعه ثانية :

- هذا كلام درسناه قديما جدا في علم الحيوان ، أظن في المدارس الـ

وهل كان يقابل سخريته بمثلها حين قاطعه بهدوء :

- كويس إنك لسه فاكر .

استمر :

- والبعد الخامس

أغفل هذه المرة السخرية وهو يقول :

- الشيئ الغامض غير المحدد الذى يقال له النفس أو الروح .

- تألقت السخرية وهو يعقب :

- جميل ، جميل جدا ، جئنا إلى مؤتمر علمى لنقف على أحـدث اتجاهـات البحث وموضوعاته ورجعنا وقد كسبنا شيخا مطمطما ، لله الحمد" .

"رفقا به ، واحدة واحدة" ، قال بهدوء :

- لو أننا في مصر قررنا أن نرسلك إلى المحطة المدارية .

قاطعه ضاحكا متظاهرا بالخوف ، هل كان يخفى خوفا حقيقيا ؟

- فال لله ولا فالك .

تابع من غير غضب :

- لو حدث ذلك ، كيف ستذهب إلى المحطة .

صمت وقد أدرك أنه يستدرجه إلى حوار ، فاستمر :

- طبعا لن تركب سيارتك الحكومية ولا التوربينى ، ولا حتى الصاروخ .

تساءل وهو بين الجد والهزل :

- ماذا تريدنى أن أركب ، حمارة عم شليح مثلا ؟ ·

تساءل جادا :

- من عم شليح ؟

هل غاظه السؤال فرد وفي صوته نبرة ضيق :

- ما علينا ، لم تقل ماذا أركب ·

- حتى الآن ستأتى إلى هنا لتأخذ المكوك لينقلك إلى المحطة ·

- وبعد الآن أيضا ، من المؤكد أنهم لن يبنوا كوبرى ليتفسح الناس عليه في العصارى ·

صمت لحظات "هذا الرجل هو الذى يرسم ويخطط للبحث العلمى في المركز ، أما كان أحسن له وللمركز أن يستمر في بحوثه عن إسهال الكتاكيت" ·

- ما رأيك في أن تسافر من مصر مباشرة إلى المحطة المدارية من غير أى وسيلة أنتقال لا مكوك ، ولا كوبرى ، ولا حتى حمارة عم شليح ·

- كيف ؟

برغمه ند السؤال ·

- تعرف أننا نستقبل الآن الصورة من على بعد ملايين الكيلو مترات في الأرض أو في الفضاء ·

- يا أخى الله يهديك ، أفتكرتك بتتكلم جد ·

علت الابتسامة وجهه وهو يقول العبارة · لكن المفاجأة أنه استمر يتكلم بجد :

- الأجهزة الموجودة حتى الآن تنقل الصورة ، وليس الشيئ ، وتنقل بعدين ، لا ثلاثة ولا أربعة ولا خمسة ، ماذا لو أمكن ابتكار جهاز ينقل الشيئ نفسه ، وليس صورته · يدخل الشيئ فيه فيتم تحويله مثل الصورة إلى نبضات يتم بثها واستقبالها على بعد ملايين الكيلو مترات بواسطة جهاز تجميع ·

- مستحيل .

- الأساس العلمى لنقل الصورة ونقل الشيئ نفسه واحد . ولم تعد المشكلة في هذا النقل ، المشكلة الحقيقية في نقل البعد الخامس .

هل كان يعترض ساخرا :

- لا بد أنك انتهيت من حل مشكلة البعدين الثالث والرابع ! .

- هذا صحيح ، الخامس وحده هو المشكلة .

وهل كان يتابع سخريته حين قال :

- ما دمت قد انتهيت من حل مشكلة الثالث والرابع فليس هناك مشكلة على الإطلاق في الخامس .

تساءل وصوته يجمع بين الدهشة والفرحة :

- كيف ؟

رد بهدوء :

- يكفى الانتقال بالأبعاد الأربعة ، هو احنا حنشنق .

واستغرق فجأة في ضحكة صافية من القلب وهو يقول :

- تصدق بالله ، كنت فاكر إنك بتتكلم جد .

حدق فيه مستغربا فأضاف :

- والأكادة إنك قدرت تسبكها بصحيح ، عبقرى ، والله العظيم عبقرى ، لهم حق ، إذا كنت قدرت تعرفت تعملهم على وأنا اللى عارفك كويس .

وصمت لحظات ثم تابع وقد علا وجهه الجد :

- خلينا في المهم ، اشتريت إيه للمدام والعيال .

ولم ينتظر إجابته ، وأخذ يفيض في نجاحه في استغلال فرصة وجوده في المؤتمر ليشترى الطلبات التى تضمنتها القائمة الطويلة التى أعطته إياها زوجته . فجأة حمل وجهه لمحة حزن وهو يقول :

- حاجة واحدة بس ما جبتهاش .

انتظر أن يسأله لكنه لم يفعل ، فأضاف :

- جهاز صغير لتلميع الضوافر كان ناقص في المولات اللى زرتها ٠

ظل محدقا فيه لم يفارق وجهه الجد وهو يسأله :

- وليه ما طلبتوش ٠

رد بسعادة ضاعفها مشاركته في اهتمامه :

- حصل ، وصيت عليه ثلاثة من جماعتنا اللى بيدرسوا هنا ٠

وصمت قليلا ليضيف وقد اكتسى صوته نبرة قلق :

- لكن أنا ما ادتهمش فلوس ، تفتكــر حيجيبوه ، يا خوفى ليكونـــــوا ولاد كلب ٠

واستغرق - بدوره - في التفكير في المعضلة التى لم يعمل لها حسابا ٠

- ٩ -

ما كاد يجلس إلى جواره ويربط حزامه حتى مال عليه كأنما يبلغـــه بســـر ، وقال له بنغمة تجمع بين الاعتزاز والفخر .

- سمعت الحتة دى .

تساءل بلهفة وقد فاجأته العبارة :

- قصيدة جديدة ؟ .

وتابع لم يتمالك نفسه من الدهشة :

- أنت معجزة ، كتبتها فين وامتى .

مسته الكلمات بثقة متجددة ، فابتسم متظاهرا بالتواضع قبل أن يقول :

- أبدا ، جانى الوحى وانت بتصور ، قعدت في المول أتفرج على الوظـــوظ والكلابظ ، اللى رايح واللى جاى ، واللى لا رايح ولا جاى ، اللـــى واقــف واللى قاعد ، واللى نايم واللى راقد ، بصيت لقيت نفسى بقولها . تسمع :

- سمعنى .

مال عليه يمنحه أذنه ، فمال عليه يسر إليه بالكلمات :

- قعـدة ماسكـة القرشوللـى بالحربوللـى وتقـــول آه

يا خواتـــى دوبهـــا اللـــى في الدرمللـــى والشـــد وراه
ساعات تغمس وساعة تلمس ، الثانية تحسس وتقول شايفاه
الشغـــل جايلك شيكـــا بيكـــا في الأنتيكـــة واحنـــا معـــاه

واقترب من أذنه أكثر مما كان ليسأله :

- حلو الكلام ؟

رد شريكه بحماس :

- سيكا يا عسل

وسكت لحظة ليضيف مؤكدا :

- وشرف أم الملك سيكا ٠

وصمت لحظة أخرى ليقول بنغمة تشى بالقلق :

- لكن لسه ماكملتش؟٠

قال يطمئنه :

- من قال لك ؟ !

غمرته البسمة فاستمر :

- سمعنى ، وحياة القرشوللى اللى بتقول عليه ٠

- الأول أعرف رأيك ٠

- قلت لك ، وإذا كانت سيكا مش كفاية نقول هارمونى ٠

وصمت لحظات ليتابع :

- تحب أحلف لك تانى ٠

- مصدقك ٠

لقد انتهى الوقت الذى كان يقف فيه مصفوف القدمين معقـــود اليديـــن يتشوف في وجل إلى كلمة واحدة تخرج من بين شفاه سميع واحد ٠

لكنه تنحنح كما لو كان لديه ما يقوله ، توقف عن القراءة ونظر إليـــه مستطلعا ، فقال بحذر :

- طبعا احنا خوات ٠

- مفيش كلام ولا في الأحلام .

- ونجاحنا مشترك يا برنس .

- يا لورد دى مسألة معروفة ، كل الوسط بيقولها ، نجاحك هو نجاحى ونجاحى هو نجاحك .

- بس .

وتوقف ، فشجعه وهو يبتسم :

- قل ما يهمكش .

- خايف من زعلك .

- أهو داللى مش ممكن أبدا ولا أفكر فيه أبدا .

- طيب إيه رأيك لو شلنا من الكوبليه الأول كلمة الشغل جا يلك شيكا بيكا.

صمت لحظة ليضيف :

- يا عم شغل أيه ، هو فيه النهارده شغل !! دا حتى ولا في الأحلام .

أرجع ظهره إلى الوراء وأخذ يتفحصه بإمعان ، "يبدو أنه نسى نفسه ، أنت أول من يجب أن يعرف من أكون ، أنا مؤلف كلمات الشريط الذى باع أكثر من خمسة ملايين نسخة وحقق الملايين من الأرباح ، ونقل ملحنين مغمورين لا يعرفون من الآلات الموسيقية أكثر من الدربكة وطشت الغسيل ليصبحوا أشهر موسيقيين في العالم العربى ، وبفضله صعد إلى السماء عربجى مكتوم الصوت ليصبح بين يوم وليلة نجم الملايين . أنا ضيف الشرف وحامل الدرع وصاحب الوسام ، أنا فارس الكلمة التى يتنافس الكتاب في كل مكان على تحليلها ، هى لغة العصر ، هى التعبير الحى عن الواقع الحقيقى ، هى التجسيد الخلاق للروح المسحوقة والبطش القاهر وصمت القدرة وانسحاق الذات ، هى المعادل الفنى الفذ للإحساس بالعدمية والفناء ، تدعى أنك فنان حقيقى وأنت لم تقرأ ما كتبه النقاد عن كاتب العصر ، عن الموهوب الأول . دى مصيبة ..

لما طال صمته قال كأنما يستدرك خطأ وقع منه :

- خلاص إذا كنت زعلت بلاش ٠

رد كأنما يستنكف :

- أزعل منك أنت :

وتابع كأنما يجامله :

-إيه الكلمة اللى تحل محلها في رأيك ؟

انفرجت أساريره بعد أن أحس بأنه قبل المبدأ ، وقال كأنما يسترضيه :

- يا سيد الكل أنت أبو الكلمة وعمها ، مش حتعجز عنها ، بس حط لنا كده حاجة فرايحى بلاش وحياتك الكلام في الشغل والنكد ده ٠

فكر دقائق ثم التفت إليه ليقول :

- شوف ، صحيح أنا مش عاجز لكن المسألة مسألة مبدأ ٠ ومفيش كلمة تحل محلها ٠

أحس بأنه يتملص فأراد أن يقطع عليه خط الرجعة ، قال :

- من ناحية المبدأ ياعمنا مفيش مشكلة ، ياما غيّر أحمد شوقى كلمات عشان عبد الوهاب ٠

تساءل باستخفاف ٠

-من شوقى ده ؟

رقعه بنظرة ثم تابع دون أن يلتفت إلى التساؤل :

- وياما غيّر أحمد رامى عشان أم كلثوم ٠

- ومن رامى ده ؟

وأحس كما لو كان شريكه يستنكر تساؤلاته ، فتابع بثقة :

- أنا معرفش اللى انت بتتكلم عليهم دول لكن أعرف حاجة واحدة ، إن أنا شاعر حقيقى بيمخمغ ويقول كلام يعشش في الطاسة ، أنا أحسن واحد يحس بالكلمة ما تقلش شوقى ولا دياولو ، انت ما بتقراش ياروح قلبى ٠

كأنما غيظ الرجل فقال كالمعترض :

- برضه شوقى بك شاعر كبير ومعروف ٠

فرد بغضب وقد أثاره الاعتراض :

- مش أكثر منى ، إذا كان بيه زى ما بتقول فأنا الباشا .

أصابهما الحديث بكآبة فلجآ إلى الصمت ، لكن الشاعر ما لبث أن وجد الدليل الذى لا يصد ولا يرد :

- اسمع هو فيه حد منهم سافر أمريكا .

أجاب مترددا :

- لا أظن .

قال بصوت يتفجر نشوة :

- أنا بأه دعتنى أمريكا رسمى باعتبارى الممثل الحقيقي لثقافة الشعب .

وتابع بزهو بعد أن أيقن أنه قطع عليه أى اعتراض آخر :

- أظن بعد كده ما يقدرش حد يتكلم .

"ياعمنا اسألنى أنا ، دول خواجات ما يفهموش الكلام وما يعرفوش الحقيقة ما لهم هم ومال ثقافة الشعب ، مش لما يكون عندهم في الأول ثقافة ؟! دا تاريخهم كله عطفة سد مزنوقة في حارة الروم بكرة تفش مهما تغش ، لكن حنعمل إيه في حكم القوى . هو حد يقدر يتكلم ، خدلك يا عم يومين" ، خطرت بباله الكلمات لكنه لم يسمح لها أن تجرى على لسانه حتى لا يزداد الموقف سوءا .

وغمغم معلنا الاستسلام :

- كنت عارف من الأول إنك حتكسب لكن حبيت أزغزغ العبقرية .

وتابع متملقا :

- لكن أعمل إيه ، وقعت في إيد من لا يرحم .

عقب وكأنه ينصح :

- عشان تبطل لعب مع الكبار .

وصمت لحظة ليضيف :

- الكبار قوى .

هز رأسه ، هل كان يحس بندم • نظر إليه بعطف • تعلم وتاب فليمنح منك البركة :

- تسمع بأه عشان تشوف المخمخة اللى على أصلها •

شرع يقرأ باقى القصيدة ، فقاطعه متوسلا :

- لا وحياة الشيكا بيكا الغالية ، لتقول م الأول ، خلينا نقطّع ونوضّب ونوزن ونعمّر ونزهزه ونشوف اللى ما حدش بيشوفه ولا حيشوفه •

أخذ يقرأ بمزاج ، يزداد بنفسه إعجابا كلما تقدم في القراءة ، يدندن ، يلوّح ويشوّح ، يتلفت ، يقوم ويجلس ، يتمدد ، يمضع الكلمات ، يتلذذ ، يتمظمظ، الكلمات تتتابع ، تجرى ، تتوالى ، تتساقط موتى ، لا لون ولا شكل ولا طعم ولا رائحة ، لا نظرة ولا فكرة ولا معنى ولا إحساس ، لا رؤية ولا اتصال ولا تواصل ولا قطيعة ، الفراغ المطلق ، إنها العبقرية الحقيقية المتسقة مع الوجود العدمى • في أعماق الأعماق فراغ يتفجر ، ينداح ويتمدد يغرق كل الآفاق ، يتجدد ، هذا ما يجب أن يكون لتقدم ما يجب أن يكون ، فلتكن الكلمات مشاهد تترى تخلو من كل دلالة ليمنحها المشاهد الفكرة والمعنى والموقف والرمز ، يهبها تجربته ، الحزن الفرح ، الحياة الموت ، البراءة الدعارة ، الحقائق الأباطيل ، فليتكلم فراغك بفصاحة عصرك في مشاهد لا يحلم بها أحد حتى أنت ، مشاهد تتقاطع تتداخل تتواصل تتفاصل تتمزق ، الموتى لا يموتون ، كيف يموت من أقبل على الكأس يشرب ، الأحياء أبدا لا يعيشون كيف يمكن أن يعيش من هو في كل لحظة بالموت يحلم ، أشباح الموتى تتعانق تتراقص ، تمتد صفوفا متراصة ، تتدافع تلعق وجوه الأحياء فتتساقط ، تمس عظامهم فتذوب ، تغتصب الليل وتزهق روحه ، تقطرها في السيقان الشوهاء المشلولة فتنهض تتحرك تركض تتسابق تزدرد رؤوسا حجرية •

- وحق العبقرية لعمل فيها شغل ما حصلش ومش حيحصل •

- الأول نتفق •

قالها بهدوء الواثق من أنه قادر على أن يملى شروطه .

سارع بالرد :

- **عمرنا ما حنختلف .**

- ١٠ -

- ما رأيك في فكرة بمليون دولار ؟ .

لم ترد عليه جارته التى صاحبها في رحلة الذهاب وها هو ذا يصاحبها لحسن حظه في رحلة العودة ، التفت إليها يوشك أن يفتح فمه ليكرر تساؤله لكنه توقف ، كانت قد انتهت من وضع نظارتها الكارتييه الطبية على وجهها وشرعت تخرج مرآتها وبقية أدوات المكياج لتستكمل زينتها ، تمتم لنفسه : "كيف خرجت من الفندق بهذه الصورة "كان مكياجها مشوها إلى درجة تسمح لمن ينظر إليها أن يرى بوضوح بشرتها في بعض المواضع كابية تجمع بين السمرة والصفرة ، وفي مواضع أخرى كانت الألوان شديدة الاضطراب حل بعضها مكان بعض ، فالأخضر والأحمر تراكما متجاورين فوق العينين ، بينما تداخلت تحتهما ألوان الفوشيا والأزرق ، صرف نظره عنها وقد شرعت تمسح وجهها لتبدأ في عملها حتى لا تحس بحرج ، وأخذ يشغل نفسه بمراقبة سرعة الطائرة وهى تواصل تحركها على الممر استعدادا للإقلاع ، تمتم لنفسه بعد أن اختلس نظرة جانبية إليها" لها حق تستعجل ، لو رأوها في هذه

الصورة ما عرفوها ، شكلها الحقيقى مفزع" ، وأخرج من علبة سجائره في جيبه الخارجى سيجارة وضعها بين أصبعيه دون أن يشعلها ، وعاد ثانية يلقى ببصره من خلال النافذة "هل هذا قدرك النهائى ، أن تواصل تقديم أفكار برامجك وموضوعاتك إليها لتحصل أنت على الفتات بينما تحصل هى على كل شيئ ، الملايين والنفوذ والعز ، الشقة الساحرة في المعمورة والشاليه الفاخر في لسان الوزراء والمزرعة الأسطورية في النوبارية ، هل كنت تتصور أن البنت الشرهة ذات العجيزة التى اختبر عمقها الشبان من العصافرة إلى باكوس والرمل حتى المكس والعجمى والتى ظلت مقيدة في الثانوية العامة سنوات حتى اضطرت إلى تغيير مسارها تدخل التليفزيون من أبوابه الجانبية لتنطلق كالصاروخ فتصبح النجمة المحورية ، تتجول حيث شاءت في الداخل والخارج باسم برامجها مستقلة المرسيدس الحكومية في أى مكان لتنقلها إلى الاستقبالات الرسمية وقصور الضيافة . هل كان صديقك ضابط الآداب الذى حدثك عن نشاطها منذ سنوات ليست بعيدة مؤكدا أنها في قبضته تماما وأن إجراءاته الدقيقة ستلقى بها في سجن القناطر لا محالة عن قريب يتوقع أن تفلت منه لتصبح هى الأقوى ولتلقى به هو بعد سنوات محدودة إلى مرور الواحات . تنمو هى وتتعاظم وتقترب إلى حد التماس وتظل أنت حيث كنت سنوات استمرت كأنها قرون لم تحرز تقدما في أى موقع منذ اختارك لتكون واحدا من أقلامه الثلاثة التى يكتب بها . "لاحظت أنك تتابع الشئون الخارجية .. هذا اهتمامى منذ كنت طالبا في الجامعة .. ولاحظت أنك تفهم في العلاقات الدولية .. إنه تخصصى العلمى .. والعملى أيضا .. لا أفهم .. أنا أكتب مقالاتى عن هذه الموضوعات بنفسى لكن الظروف أحيانا لا تمنحنى وقتا كافيا ، ولذلك اخترتك لمساعدتى ، طبعاً سأقدم لك أفكارى في كل موضوع وأنت تقوم بالصياغة ، وهذه مسألة معروفة في كل دور الصحف العالمية . لكننى لا أحب أن تتحدث عنها .. والأفكار التى يقدمها تضمحل إلى أن تذوب ، وتكتب أنت الموضوع كله

ليضع عليه في النهاية بصمته ، وأحلامك عن ثمرات الاقتراب تذوى ، وتذبل ، وأقصى ما يقدمه لك رحلة من هذا النوع تحصل خلالها على بدل سفر تحت بند تجديد معلوماتك بشكل مباشر ، ويجنى هو كل الثمار ، ملعون أبو الدنيا كما قال عمنا الكبير" .

كأنما كانت تؤذنه بقرب انتهائها حين قالت :

- بتقول إيه ، ما سمعتش .

التفت إليها ، كانت ما زالت تمسك بمرآتها الصغيرة في يسراها ، والقلم الرفيع في يمناها تحدد به شفتيها ، وضعت القلم وأمسكت بفرشاة صغيرة أجرتها برقة على لونها المحبب ثم أخذت تملأ به ما تم تحديده في الشفاه . بهرته الدقة التى بلغت حد الروعة ، والقدرة على تنسيق الألوان وتدرجها وتواصلها وتداخلها ، ولولا جذور للشعر خلت من الأصباغ لبدت عملا فنيا مكتملا ، يجمع بين الدقة والرقة والجاذبية والإشعاع ، فيه يتجسد سحر ليورناردو ديفنشى واللمسات الخلاقة لصلاح طاهر ، زادها فتنة تدفق الشعر الكستنائى ذى الخصلات المتداخلة الألوان يحيط بالوجه ويمتد جانب منه على الصدر المفتوح حتى ما بين النجدين ، تمتم لنفسه : لماذا تهمل دائما العناية برقبتها ، برغم ما عليها فإنها تظهر باهتة خرساء . طال صمته متأملا فأيقنت أن زينتها قد بلغت غايتها ، تساءلت ضاحكة وهو يحدق فيها كأنما تنبهه إليها :

- إيه ، أول مرة تشوف القمر ؟

رد بسرعة كأنما تعود على السؤال كما تعود على الإجابة :

- أعمل إيه ، أصل القمر كل ما بشوفه بيزيد حلاوة .

سارعت بدورها كأنما تعودت :

- آه منك ، كلامك بيدوخ .

وأغرقت في الضحك وهى تضيف :

- بياع كلام .

جاوبتها ضحكته الغامرة وهو يقول :

- الكلام على لسانك سحر ، وبين شفايفك نغم .

واصلت الضحك منحنية إلى أمام تدق الأرض بمقدم قدميها شأنها حين تكون في الذروة واكتفت بشهقة اسكندرانية غائرة قالت بعدها :

- يا خرابى .

ولم يستغرق انتقالها من الذروة إلى السفح إلا لحظات التفتت بعدها إليه لتسأله :

- انت قلت إيه الأول .

هل فاجأه السؤال أو فاجأته سرعة الانتقال ، غمغم كأنما لم يفطن ، ابتسمت سعيدة لارتباكه وتابعت موضحة :

- فكرة إيه اللى بمليون دولار .

سرعان ما جمع نفسه واستدرك ليقول بهدوء :

- برنامج جديد .

صمت متوقعا تشجيعا ، لكنها اكتفت بقولها :

- تكلم .

- البرنامج بيركز على الكبار في كل المجالات ، سياسة ، اقتصاد ، ثقافة ، فنون ، صحافة ، إعلام ، جامعات ، كله .. كله .

قاطعته :

- البرامج دى كثيرة قوى ، والناس مقروفين منها ، دا احنا بنعملها أحيانا بالأمر .

قاطعها موضحا :

- الفكرة دى جديدة ، حتركز على أسباب نجاح الكبار عندنا من خلال متابعة رحلة كفاحهم .

قاطعته ضاحكة :

- ليه ؟ حرام عليك ، ربنا أمر بالستر .

هل تعترض ، صمت برهة قرر فيها أن يتابع شرحه لعلها تقتنع :

- الفكرة تعتمد على وجود فريق عمل يستطيع جمع كـل الحقـائق عـن الشخصية ، نشأتها ، ظروفها ، تعليمها ، حياتـها ، مراحـل تطورهـا ، معاملاتها، علاقاتها . يجب أن يعرف عنها كل صغيرة وكبيرة بالمسـتندات والوثائق والشهادات الحية ، وبعدين تيجى تسجل معاك ، تتكلم عن نفسـها وحياتها وشغلها واهتماماتها والمخرج يقطّع ويحط الكلام على الحقيقـة ، والناس تشوف .

صمتت كأنما تفكر ، فتابع يستحثها :

- فكرة جديدة ، مش كده .

ردت بهدوء :

- يعنى .

أثارته الكلمة فقال متحمسا :

- لا مش يعنى ، دى فكرة مذهلة ، آه لو تخيلت التنفيذ ومفارقاته ، لمـا الشخصية تقول أنا ورثت عن أبويا كذا فدان بدأت بـهم رحلـة الكفـاح ، ويطلع أن أبوه كان صراماتى ، أو لما تقول أنا كنت مهتم بصناعة السياحة منذ نشأتى ويطلع أنه كان قواد ، أو لما الشخصية تقول إنها كانت أصغـر واحدة حصلت على الدكتوراه ويطلع إن اللى كتب لها الرسالة قلـم الشـيخ الغليظ .

قاطعته حتى تفهم قبل أن يسترسل :

- مين الشيخ الغليظ ؟

ابتسم مرغما وهو يتساءل كأنما فوجئ :

- اشمعنى دا اللى وقفت عنده . دا بالتأكيد لازم تكونى عارفاه .

ولم ينتظر ردها وتابع كمن يوضح :

- دا واحد محترم جدا مصاحب صاحب عمنا العقاد الكبير .

من جديد قاطعته كالمستنكرة :

- يا أخى لخبطتنى ، إيه يعنى مصاحب صاحبه .

قال مبتسما بنغمة تجمع بين الجد والسخرية :

- بأه دا كلام ، دا شخصيته مهمة جدا وتعتبر الركيزة الأساسية في الشغل اللى من النوع دا .

هل كانت تتساءل بسذاجة فعلا وهو تقول :

- أى شغل ؟

وهل كان يمنيها أو يمنى نفسه حين أجاب :

- بكرة لما نشتغل في البرنامج حقول لك عشان تعرفيه كويس .

- دا إذا اشتغلنا .

"يبدو أنها حتى الآن لم تقتنع ، يظهر أن النماذج التى ذكرتـــها قليلـــة الأهمية ، ماذا لو جربت أن تصعد خطوة أخرى" .

- تخيلى الشيخ الكبير لما يزحلق العمة عشان يلبسها للجمهور قال إيـــه : مولانا كانت مشكلته وهو صغير إنه يحفظ متون العلم إرضاء لأبيه العـــالم العلامة ، ومشكلته وهو كبير إزاى ينقذ المسلمين من وكستهم . وتطلـــع الحقائق تقول إن أبوه كان كلاف ، ولما ربنا فتح عليه كان بياع بطيخ على عربية يد وإن مشكلة مولانا الحقيقية وهو صغيّر إنه يحفظ النغمة صح : ع السكين ، حمار وحلاوه ، ع السكين ، بص ودوق ، ع السكين . ومشكلته الحقيقية وهو كبير إزاى يحصل على أعلى عائد من البنوك الأجنبية علـــى حسابه الخاص اللى بيحول له أموال الزكاة .

قاطعته متسائلة باهتمام :

- حقيقى هو كده .

تابع متظاهرا بأنه لم يسمعها :

- وإلا لما يطل الفنان الأكبر بعد ما يخلع نضارته في عيـــون المشـــاهدين وهو يتكلم عن عبقريته من صغره في خلط الألــــوان وابتكـــار الأشـــكال ، ويطلع إن كل اللى كان بيعمله وهو صغير إنه يكتب بالجير في موسم الحـــج

على بيوت العزب القريبة من كرموز حج مبرور وذنب مغفور ، ويرسم الجمل والمحمل والمركب والطيارة ، وإن عبقريته الحقيقية في حسن انتفاعه بالمداخل الخلفية ، بدءا من البعثة لحد ..

سكت مفكرا فقاطعته ضاحكة :

- ودى حتقلها ازاى .

رد ضاحكا :

- وأقلها ليه ، كفاية نرسم صاروخ .

تساءلت باهتمام وهى تبتسم :

- طالع وإلا نازل .

رد بسرعة :

- ما فيش فرق .

وحدق في عينيها وهو يضيف :

- طالع نازل عشان خاطر عيونك .

وأغرقا في الضحك حتى التفتت إليهما الأنظار .

أفضى بهما الضحك إلى الصمت "هل يتحدث عن فكرة حقيقية أو أن كلامه لمجرد التسلية خلال ساعات الرحلة الطويلة ، من المؤكد أنه لا يمكن أن يكون جادا تماما ، فالحقائق أوسع وأبشع وأفظع من النماذج التى يشير إليها ، كل ما قاله مجرد بقع صغيرة يمكن التعرض لها ، لكن المشكلة الحقيقية أن الناس يعرفون أكثر بكثير وحتى نرضيهم لابد أن نتقدم خطوات وليس خطوة واحدة ، في الوقت الذى لو تقدمنا خطوة صغيرة لاحترقنا ، من المستحيل استيعاب ما يدور فوق أو الإشارة إليه ، أو حتى التفكير فيه" .

"واضح أنها لم تقتنع لكن هل لديها استعداد لأن تقتنع ، الفكرة شديدة الإغراء لواحدة تحرص على أن تخترق حتى النخاع العفن وتستفيد منه ، لكن قرون الاستشعار لديها تعمل عن بعد ، واحد وراء آخر تمتد إليه يد ليقف عاريا كما ولدته أمه في مجتمع لا يحرص على الفضيلة بقدر ما

يحرص على ورقة التوت الشوهاء التى قد لا تستر بقدر ما تظهر ، ولكنها لازمة للكلام عن الطهارة والقانون" .

"هل يمكن الاقتصار على المستويات الدنيا والمتوسطة والوقوف في منتصف الطريق ، لو تم ذلك ستتساقط العصافير بغير عدد مغلفة برداء فوقي منسوج من شجاعة الصمود والمواجهة ، لكن الخطر الحقيقي يكمن في احتمال أن تكون شبكة العنكبوت قد مدت خيوطا غير مرئية فتكون الواقعة ، يبعث حيا من تحت التراب ما دفنوه بأنفسهم لتصدح الموسيقى بأناشيد العدالة المطلقة وسيادة القانون ، وتتجسد العبرة لمن يعرف ومن لا يعرف" .

مال رأسها عليه حتى لامس كتفه وهى تهمس في أذنه :

- شفت المفتاح ؟

فوجئ بالسؤال فتساءل :

- أى مفتاح ؟

- مفتاح القفل .

- أى قفل فيهم ؟

- القفل بتاعنا .

وشت ابتسامتها بما تريد ، لكنه أراد أن يداعبها وقد راوده الأمل في أنها تفكر في القيام بخطوة على الطريق :

- أشوف المفتاح ليه ومفتاحه معاى .

اتسعت ابتسامتها حتى ملأت وجهها ، فتابع وقد زال التحفظ :

- الله يكون في عونه ، القفل بتاعكم محتاج لطفاشة مش مفتاح .

كركرت في ضحكة موشاة ، وقالت كأنما تطمئنه :

- ما تخفش عليه ، دا جامد قوى ويعجبك .

"الثمرة قريبة من السقوط" رد ببهجة من وجد ضالته بعد عناء طويل بين يديه :

- في الحقيقة أنا مش خايف عليه .

واستمر وهو يحدق في عينيها :

- أنا خايف على ناس حبايبنا مؤكد حييجـي يـوم يـدوروا عليـه مـش حيلاقوه.

تساءلت بلهفة موشاة بسخرية :

- ليه ؟ حيكون راح فين ؟

- حيكون فين يعنى ، حيكون داب وبرم فى بريمة الأحباب .

- مصيبة حقيقى .

ندت الكلمة عنوة برغم حرصها على ألا يصدر عنها رد فعل ، تمتـــم السوبر فايزر لنفسه وقد داخله ضيق : "المضيفات الجدد على الخطوط عـادة ما يبالغن في الأمور العادية" نظر إليها لائما وهو يهمس :

- أول شيئ تتعلمنه في التدريب عدم استخدام هذا النوع من الكلمات .

صمتت - كأنما توجه حديثها لنفسها :

- آسفة ، آسفة جدا .

تابع كأنما لم يسمع كلماتها :

- أنت لا تعرفين مدى حساسية الراكب وهو معلق بين السماء والأرض .

استمرت :

- آسفة ، آسفة جدا ، غصب عنى ، أصل . . .

صمتت فلم تكمل ، هل أشفق عليها وهو يرى الدموع تجول فـــي عينيـــها ، بادر متلطفا يشى صوته بابتسامة :

- أرض إيه ، نحن بين السماء والماء .

لم تخفف العبارة عنها بما فيه الكفاية ، فاستمر وهو يتأمل عينيها :

- السماء فوقكم والأطلنطى تحتكم ، وحتروحوا منى فين لحد ما أوصلكم مطار القاهرة .

وصمت لحظة يرقب رد فعلها قبل أن يتابع وقد ازدادت ابتسامته :

- إنت بالذات وراك وراك لحد ما أوصلك شارع النزهة .

تشى الابتسامة المغتصبة بقلق ، مثل هذا النموذج يعمل من الحبة قبة ، نظر في عينيها مباشرة وهو يسأل :

- إيه الحكاية .

صوتها الخافت معجون بخوف حقيقى :

- مفيش تموين كفاية .

رد باستهانة ساخرة .

- بس كده ، بأه دا كلام ، تخضينى ليه هو أنا عملت لك حاجة .

وسوسة الضحكة الصافية تمد فيها حبل أمل غير منظور ولا محدد الهوية وهو يتابع برقة :

- أنت جديدة حقيقى ، دا أنا خفت فعلا ، أكيد حطوه في الأجزاء الثانية .

نظرت إليه بامتنان عارف بجميل لا يقدر ، وأشرق وجهها وكأنما لم تكن منذ لحظات في قبضة الخوف ، وقالت وصوتها يقطر رقة :

- مرسيه . مرسيه حقيقى .

وانصرفت تزاول عملها .

أخذ يرقبها وهى تعد المشروبات الخاصة للمرحلة الأولية من الضيافة ، أخرجت الحاوية المتنقلة من موقعها وراحت ترص عليها بإحكام زجاجات المياه والمشروبات وعلبه اللبن والعصائر ، أزاحتها قليلا لتتسع للأكواب الفارغة ، ولما لم تتسع بما فيه الكفاية وضعت جزءا منها على الرف العلوى للحاوية ، ومضت بها إلى الممر الأيمن بهدوء دون أن تصدر عنها كلمة واحدة .

"برغم تسرعها تتميز بالهدوء والدقة ، لها مستقبل على الخطوط الطويلة" تلفت إلى الجانب الآخر فوجد أخرى مقبلة تتهادى بابتسامتها الغامضة ، خفق القلب بهجة ، فاضت العينان نشوة تفجرت نبعا ثرا في الأعماق ، أخيرا بعد يأس أقبلت ، هل آن للحاجز الزجاجى أن يرفع ، برغم صحبتهما في كثير من الرحلات الطويلة فإنها ما زالت تتعامل معه بنفس الأسلوب الذى تعاملت به معه في رحلتهما الأولى ، الشموخ والكبرياء والأنفة في مزيج دقيق من الرقة والحسم ، تحس بقربها لكن لا تستطيع لمسها ، ولو حاولت أن تتجاوز إلى أبعد مما تحدده هى تجدها أقامت بنظرة واحدة جدارها العالى ، وحتى السهرة الرائعة التى لحتشد لها في برودواى بعد أن مهد لها في بروكلين لم تترك فيها أثرا وهو الذى كان يتوقع أن تصرخ انبهارا بإعجاز التكنيكات الجديدة .

قالت بهدوء حتى من غير أن تحيى :

- **يظهر أن لدينا مشكلة .**

تساءل في دهشة ، فهى من الطراز الذى تعود ألا يشكو :

- **أى مشكلة .**

ردت بهدوء :

- **في ٢٣ إيه ، لو سمحت شوف بنفسك وسأنتظرك هنا .**

حملته اللهجة الحاسمة على الإذعان ، سار في الممر متجها إلى الموقع المحدد ، رأسه يموج بالاحتمالات الممكنة ، عدا ما رآه بالفعل ، كانا متضامين إلى حد الالتصاق ، هو مغمض العينين مشدود الوجه يعض بأسنانه شفته السفلى أما هى فلسانها يلعق بنهم رقبته هابطا إلى الصدر العارى الذى فتحت أزرار قميصه في طريقها إلى أسفل ويدها تطوق بإحكام ما بين فخذيه . تمتم مذهولا ، "إنهما في حالة الذروة ولن يخرجا منها حتى ولا بالطبل البلدى" ، سحب الكوفرتة الصغيرة من الدرج العلوى فألقاها عليهما

دون أن يلتفت أى منهما إليه ، فارتد إلى الوراء يجز على أسنانه ومضى إلى مكانه حيث التقى بها ٠

نظرت إليه بأناة كما لو كانت تستفسر ، حدثها وجومه ووجهه المربد بأنه طبق التعليمات بحذافيرها ٠

طال الصمت - فقال كأنما يطمئنها :

- واضح أنهما أجنبيان ٠

ظلت صامته فتابع :

- يمكن أن نتأكد ، القائمة مع الكابتن ، وأظن أن معى نسخة ٠

هل أراد أن يبرر موقفه أو أن يخرجها من صمتها حين سألها برقة غير مصطنعة وهو يفتعل ابتسامة :

- يا ترى ما حكم الأستاذ المستشار في مثل هذا الموقف ؟

تساءلت بسخرية :

- عليك أو عليهما ؟

ولم تنتظر ردا ، مضت كما جاءت دون تحية ٠ تعلق بصره بها وهى تدق الأرض بثبات ٠

"بغض الهوينى ، خففى الوطء قليلا ، انزلى من عليائك وتأملى الحياة فوق التراب ، ليس أبى مستشارا بمحكمة النقض وليست أمى عضوا في مجلس الشورى ، لم أضع ساقا على ساق والوظائف تسعى إلى حتى من قبل أن أتخرج لأتخير منها وظيفة تشبع غرورى ، أبى كان مدرسا للتاريخ في مدرسة كفر الخضرة ومات بمرض مزمن في الكبد نتج عن إصابته في صغره بالبلهارسيا ٠ وأمى التى يملؤها الرعب من قرب إحالتها إلى المعاش سكرتيرة مدرسة إعدادية تلهث لتعول بناتها الثلاث ، رعبها من يوم قريب تصبح فيه عاجزة عن تعليم بناتها ، كنت تتوقعين أن أقوم برد فعل عاصف حين وضعتنى مباشرة أمام الموقف حتى لا تتيحى لى أى فرصة للتفكير في غير القرار الانفعالى ، هل كان هذا يرضى رغبتك في اتخاذ موقف بطولى

تصفقين له إعجابا ، وماذا بعد ؟ ٠٠ مثلك لا يفكر أبدا في العواقب ، هناك من يفكر له ويخطط ويحمي عند الضرورة ، هل تعرفين معنى أن يحال مثلي إلى التحقيق وأن تتراوح العقوبة بين أن يمنع من الرحلات الخارجية أو يحال إلى الأعمال الأرضية ٠ هل تخيلت يوما بكاء أم عجوز تتوقع زيادة دخل يعوضها عما فقدت فإذا بهذا الدخل ينهار وتجد نفسها دون جرم جنته في مواجهة الكارثة ٠ ماذا كنت ستفعلين حينئذ ، حرارة التصفيق تبرد لتحل محلها مصمصة الشفاه إشفاقا إذا جاءت السيرة مصادفة على لسان زميل" ٠

سارت بتؤدة حتى وصلت إلى سنتر الخدمة ، أخذت ترقب زميلاتها يعددن مشروبات المرحلة الأولى من الضيافة ، تنحت جانبا لتستند إلى الكاونتر الصغير وعيناها معلقتان في الفراغ ٠

"ماذا تتوقعين من جمل صار الصبر طعامه وشرابه ، أصبح حياته حتى أدمنه ، هل يمكن أن يفعل أكثر من أن ينخ ليركبه أحد ويخطم من أنفه ليقوده أحد ، كيف خطر بباله أن يسأل مجرد سؤال عن موقف أبيك ، رجل القانون العظيم ٠ هل أردت أن تثبت سلامة موقفك طبقا لحواراتك الطويلة المملة التى تحاول بها أن تضفى الاحترام على تصرفاتك ٠٠ القانون ليس العدل ، القانون مجرد أداة للوصول إلى العدل ، وقد تقصر الأداة عن تحقيق الهدف ٠٠ القانون هو الحق ، لا حق بغير قانون ٠٠ القانون نسبى ، يتفاوت بتفاوت الظروف والأحوال والقيم ، والحق القانونى ليس أكثر من إقرار بأثر هذه العوامل أما الحق المطلق فهو العدالة المطلقة ، وهى قبس من روح الله ٠ لا يملك المستشار العظيم أن يقطع بأنه دائم الوصول إليه ، وإن كان له الحق في أن يدعى أنه يحرص عليه ٠٠ القانون إرادة المجتمع في تحريم الفساد وضربه ٠٠ القانون إرادة السلطة التى قد لا تكون معبرة عن إرادة المجتمع ٠٠ قد تقنن السلطة الفساد فيصبح جزءا من القانون ، تقنين الفساد فساد قانونى يمكن كشف عواره وإثبات بطلانه ٠٠ الإمكان غير الفعل ، الإمكان احتمال عقلى أما الفعل فواقع عملى ٠٠ كلامك هذا

معناه أنك ضد القانون ‥ كلامى معناه أننى مع العدالة ، وأدعو إلى العمل من أجلها ‥ وأنا مع القانون برغم ما فيه من قصور ، لأن طلبى للعدالة يجعلنى معه لكنى أرى قصوره وأدعو لتقويمه ‥ كيف تكون معه وهو لا يحقق العدالة ‥ لأنه ضد الفوضى ‥ أنت بهذا تدافع عن الفساد ‥‥ كلامك غير مفهوم ، أحيانا تدافع عن العدالة وأحيانا تدافع عن الفساد ‥ أنا لم أدافع أبدا عن فساد ، الذى يدافع عن الفساد هو القانون الفاسد ‥ أنت شديد التناقض ، تتناقض حتى مع نفسك ‥ الاتهام بالتناقض لم يعد يخيفنى ، فالتناقض محور حياتنا ، ندور به وفيه ومعه ولا نستطيع الخلاص منه ‥ هذا تبرير العاجزين ‥ هذا تصوير للواقع ‥ يجب أن تكون الشجاعة متوفرة للثورة عليه ‥ لسنا على استعداد لدفع الثمن الباهظ للثورة ‥ لذلك تشوهون حياتكم بالاستسلام لماذا الاستسلام والخلاص ممكن ‥ كيف يكون ممكنا وأقدامنا تغوص في الطين ‥ لا مشكلة على الإطلاق فالثورة تحتاج إلى أقدام ثابتة في الأرض وعيون تحلق في السماء" ٠

عادت من تهويمها محنقة لتجد إلى جوارها زميلة رسمت على وجهها تلك الابتسامة الباردة المصنوعة التى تواجه بها انفعالات موقف غير متوقع ، جال في ذهنها خاطر : مشكلة جديدة ، ما هى هل يستطيع هذه المرة أن يجد لها حلا ، وكيف ، بادرت زميلتها متسائلة :

- **خير ؟**

ردت بنغمة يحاول هدوؤها إخفاء غيظها :

- **راكب تانى أجنبى ٠**

ظلت صامتة فتابعت :

- **عامل مشكلة جديدة ٠**

واصلت صمتها فاستمرت لتفسر :

- **عاوز ويسكى ٠**

سألتها بهدوء مع أنها تعرف الإجابة :

– هل قلت له إن الشرب ممنوع ؟

– قلت له وما خلصتش منه ، قال إنه يعرف حقوقه جيدا طبقا للقوانين ، وإن الحصول على كأس حق له وإنه ليس مستعدا للتنازل عنه .

– لكن السكر ممنوع تماما في القوانين ، أكدت له هذا ؟

ردت زميلتها بنغمة تجمع بين اليأس والغيظ :

– حصل ، لكنه قال إنه لا يسكر من شرب كأس أو كأسين ، وأنه يحمّل الشركة المسئولية القانونية في حرمانه من حقه ، وأنه سيرفع دعوى قضائية ضد الشركة وسيطالبها بتعويض مليون دولار .

تمتمت بهدوء :

– ما رأيك في أن تعرضي المشكلة على السوبر فايزر بنفسك ، ربما وجد لها حلا .

ولما مدت يدها تلتقط سماعة التليفون الداخلي تابعت :

– يحسن أن تقابليه . قد تكون عندك فرصة للمناقشة معه .

– وأين هو ؟

– في موقعه ، في السنتر المتوسط .

قالتها بصوتها الخافت البالغ الهدوء ، وابتسامة صغيرة تطوف بعينيها "إنه اختبار آخر له ، عبد النظام سيجد نفسه شاء أو أبى في مواجهة حقيقية مع النظام نفسه ، استجبت للطلب أو لم تستجب له التحقيق قادم لا محالة" .

– الحقى ، مشكلة .

نظرة إليها دون أن يفارقها هدوؤها ، لكن الابتسامة الغامضة ملأت وجهها ، يبدو أن هذه الرحلة ستكون رحلة تاريخية .

– أى مشكلة ؟

ظننت أنها تهمس وهى توشك أن تلتصق بها لتقول :

– التموين ناقص .

تلفتت لتتأكد من أن أحدا لم يسمعها وهى تسألها :

- أى تموين ؟

- الوجبات ، الأكل .

تابعت تستوضح :

- يعنى إيه ناقص ؟

تلعثمت وهى تجيب :

- أقل من عدد الركاب .

واصلت :

- هنا بس والا في الطيارة كلها .

صمتت ، استمرت :

- ناقص إيه .

تفحصتها بإمعان جعلها تشعر بالخجل حتى قبل أن تقول لها بحسم :

- قدمى بيانا كاملا بعدد الوجبات الناقصة في القسم حتى نحصل على هـذه الوجبات من الأقسام الأخرى .

- ١٢ -

في فترة وجيزة تأكد وقوع خطأ في تموين الطائرة في مطار الإقلاع ، واحتلت المشكلة بؤرة الاهتمام بين طاقم الضيافة ، الذين حاول بعضهم أن يقدم تفسيرا لما حدث بينما انصب اهتمام عدد محدود منهم على رأسهم السوبر فايزر على البحث عن حل يكفل عدم حدوث اضطراب على الطائرة . وشاركته التفكير كبرى المضيفات التي تجمعت معها كل المعلومات وراحا معا يناقشان الوضع ، وكان أول ما فكر فيه السوبر فايزر هو إصدار الأوامر إلى طاقم الضيافة بعدم التحدث مطلقا في الموضوع ، وعدم تسريب أي معلومات عنه لأي واحد من الركاب . وحين شرعت اللجنة الثنائية في دراسة الوضع من خلال المعلومات التي تجمعت اتضح أنه ليس سيئا تماما كما بدا في اللحظات الأولى .

قالت بهدوئها المألوف وصوتها عامر بالثقة :

- المشكلة يمكن التغلب عليها ، عندنا ثمانون وجبة وعدد الركاب حوالي ١٧٠ راكبا ، أي تقريبا وجبة واحدة لكل اثنين من الركاب .

تساءل السوبر فايزر ساخرا ،

- ما معنى حوالى هذه ، لابد من وجود معلومات دقيقة .

ردت مسرعة ووجهها يحمل مسحة امتعاض :

- عدد الركاب بدقة ١٦٨ راكب .

قال :

- بما فيهم طاقم القيادة والضيافة .

صمتت لحظة تطلعت فيها إلى الورقة التى بين يديها ، ثم تابعت :

- لا ، طاقم القيادة ثلاثة وطاقم الضيافة تسعة .

قال مصححا بتؤدة وقد حمل صوته نغمة لوم :

- إذن عدد الركاب الفعلى ١٨٠ ، لابد من احتساب الجميع ، فنحن نتكلم عن مشكلة تتعلق بالطعام .

هل كانت تعترض حين قالت :

- لن يتغير الموقف كثيرا إذا لم نحتسب الطاقم .

وهل كان يسخر حين رد :

- لا أظن أن أحد يمكن أن يفكر في استبعادهم ، فهم أولا ركاب على الطائرة ، وهم ثانيا لهم الأولوية لأنهم يبذلون مجهودا أكبر من أى راكب .

قبل أن تفتح فمها أضاف :

- على أى حال لابد من عرض الموقف كله على الكابتن ، فهو من الناحية القانونية المنوط به اتخاذ القرار .

لم ينتظر تعليقها ورفع سماعة الاتصال وضغط على الزر الخاص بكابينة القيادة مستأذنا فى مقابلة عاجلة ، ثم التفت إليها وهو يتجه إلى الكابينة ليقول كأنه يبرر موقفه :

- لا تنسى أنه القائد وأننا جميعا تحت قيادته وله أن يأمر فيما بما يرى في حالات الطوارئ .

ابتسمت ساخرة فأضاف :

- هذا هو القانون .

رد على ابتسامتها بمثلها وهو يسير حثيثا إلى الكابينـــــة ، دق دقتيـــن خفيفتين متصلتين بسبابته اليسرى أتبعهما بثالثة فانفتح الباب ليواجه بالقـــائد واقفا بعد أن شغل جهاز القيادة الآلي وهو يقول له بضيق :

- أنت تعرفني جيدا ، وقلت لك من قبل مائة مرة لا أحب أن تضيع وقتـــي في أمور تافهة .

فوجئ فارتبك ووجد نفسه يقول :

- إنها ليست مشكلة صغيرة ولا تافهة ، إنها مشكلة تحتـــاج إلـــى قـــرار شخصي منك .

ازداد ضيق القائد وهو يعقب :

- ما دامت مشكلة من هذا النوع ، فلماذا تقدم لي في الجهاز معلومات غير صحيحة وتقول إنها مشكلة صغيرة .

غمغم متلعثما : فتابع القائد من غير أن يدع له فرصة للرد :

- أنا لا أحب تزييف المعلومات ولا شغل الثلاث ورقات ، واضح .

اكتفى بالتحديق فيه من غير أن يرد وإن جال في ذهنه خاطر : هـــل هـــذا الرجل إبن بلدك فعلا .

- ما المشكلة ؟

قال القائد بحسم ثم صمت لحظة ليضيف :

- باختصار ، ولا تضيع الوقت في كلام لا معنى له ، ادخل مباشـــرة فـــي الموضوع .

اضطرته العبارات الصارمة أن يلخص المشكلة في جملتيـــن ، عـــدد الوجبات أقل قليلا من نصف عدد الركاب . فكيف يتم التوزيع .

كأنما أراد الكابتن أن يمنح نفسه مهلة للتفكير حين ســـأله عـــن رأيـــه الخاص ، انتهز السوبر فايزر الفرصة ليقدم التوصية :

- من الممكن أن يشترك أكثر من واحد في الوجبة الواحـدة ، لكن السؤال هو : هل يتم التوزيع على الطاقم أيضا .

حسم الكابتن الموقف عندما قال باستغراب :

- وهل الطاقم ليس راكبا على الطائرة ، على العكس يمكن اعتبارهم ركابـا لهم مهمات خاصة تقتضى أن يكونوا الأولى بالرعاية .

ابتسم السوبر فايزر راضيا بما انتهت إليه المناقشة وهم بالانصراف عندمـا استوقفه الكابتن ليسأله :

- هل بين الركاب حالات خاصة ؟

كأنما لم يفهم السؤال فتوقف عن الإجابة ، واضطر الكابتن أن يشرح :

- يفترض أن يعود على الرحلة وفد رسمى كان هنا في مباحثات ، فهل هم معنا ؟

- نعم .

- ومن المقرر أن وفدا عسكريا كان هنا في مهمة تدريبية سيعود كذلـك ، فهل هم في الرحلة .

- نعم .

صمت الكابتن لحظات ثم واصل :

- كم عدد الأجانب على الطائرة .

- ١٤ راكبا ، منهم ستة من العرب من جنسيات مختلفة .

توقف الكابتن عن مواصلة الحوار ، وارتكز بمرفقه على ظهر كرسـى القيادة وظل برهة يفكر قبل أن يقول بلهجة آمرة :

- أولا اطلب المضيفة لتحضر إلى هنا ١٢ وجبة فورا .

تمتم السوبر فايزر لنفسه وهو ينفذ الأمر : "لن يغير ذلك مـن الأمـر شيئا ، واضح أنك تطلب وجبات الطاقم" وفي لحظات كانت الوجبـات فـي الحاوية الصغيرة في كابينة القيادة . كان الكابتن مشغولا بمراجعة البيانـات على العدادات ملقيا بتعليماته إلى مساعده والمهندس الجالس خلفـه يرقـب

الومضات المتقطعة الصادرة من بعض عدادات اللوحة المُمتدة في الواجهـة حتى ظن السوبر فايزر أنه قد حصل على التوجيهات اللازمة ولم يعد ثمـة سبب لبقائه في الكابينة فاستدار لينصـرف لكنـه سـمع الكـابتن يسـتأنف توجيهاته :

- وزع وجبات كاملة على جميع أعضاء الوفود الرسمية ، وكذلـك علـى الأجانب ، وبالطبع على طاقم الضيافة ٠

أغمض السوبر فايزر عينيه يحسب عدد الوجبات الفردية التى يجب توزيعها، وعدد الوجبات المتبقية لباقى الركاب ، وتمتم لنفسه "من المؤكد أنه لا يـدرك أنه بهذا الشكل يخلق مشكلة حقيقية لا داعى لها" ٠ أحس الكابتن أنه بـتردده غير مقتنع ، فقال بهدوء :

- هل يعقل أن نجعل الأجانب الذين معنا يحسون بأنهم أخطأوا باختيـارهم شركتنا ، فضلا عما يمكن أن يؤدى إليه موقف من هذا النوع مـن آثـار سلبية على الشركة والبلد كلها ٠

صمت السوبر فايزر قليلا لكنه اضطر إلى أن يومئ برأسه موافقـا ، فوجهة النظر التى أبداها لكابتن لها وجاهتها ٠

تابع الكابتن :

- وهل يتصور أحد أن أعضاء الوفود الرسمية رفيعة المستوى لا تقدم لهم الوجبات المعتادة وهم في مهامهم من أجل البلد ٠

غمغم السوبر فايزر :

- أظن أن ٠٠٠

قال الكابتن بحسم :

- تكلم ، يمكنك أن تقول ما تريد لأنك ستتولى مـهام التنفيـذ وسـتصبح مسئولا عنه ٠

هل شجعته العبارة أو القرار ؟ ، حاول أن يستجمع مقدرته علـى عـرض وجهة نظره وأخذ يتلمس الكلمات :

- أظن أنه يحسن أن يشاركوا باقى الركاب في الأزمة . إنها فرصة لإثبات مشاركتهم للناس .

نظر إليه الكابتن ساخرا وهو يقول :

- ومن قال أنهم يريدون هذه المشاركة أصلا .

رد بحماسة .

- هم أنفسهم ، فهم يتحدثون في كل مناسبة وبدون مناسبة عن مشاركتهم للجماهير .

قاطعه بحسم :

- هذه شعارات سياسية ، والشعارات شيئ والتطبيق شيئ آخر ، هذه مسألة بديهية عند كل الناس لكن يبدو أنك لا تعيش في عصرنا .

تساءل مستنكرا :

- أنا ؟!

تجاوز التساؤل ليكمل :

- الكلام عن المشاركة مهم لتجميل الصورة فهو حقنة بنج ، لكن المشاركة نفسها مرفوضة لأنها خروج على القيم والتقاليد .

وصمت لحظات مفكرا قبل أن يضيف :

- يمكنك أن تعطى أعضاء الوفود وجباتهم الخاصة وأن تدعهم يتكلمون لباقي الركاب عن ضرورة المشاركة حتى تنتهى الأزمة .

ظل السوبر فايزر صامتا واقفا لا يتحرك ما الذى حمله على أن يقول فجأة :

-طيب والوفد العسكرى ؟

نظر إليه الكابتن باستهانة كأنه لم يسمع شيئا ، ثم أعطاه ظهره ليتفقد مؤشرات العدادات ، استغرق دقائق التفت بعدها إليه وتساءل باستخفاف :

- هل قلت شيئا ؟

ما الذى حمله على أن يتلعثم وهو يجيب :

- كنت أسأل عن الوفد العسكرى .

- ما له ؟

قالها الكابتن بنغمة تجمع بين الضيق والسخرية ، اضطر السوبر فـــايزر أن يشرح ما يفكر فيه :

- إنهم شباب ومدربون جيدا ويمكنهم أن يتحملوا الجوع لفترات طويلـــة . وهى ..

قاطعه بحدة :

- لا يمكن أن تكون إنسانا طبيعيا وتفكيرك غير منطقى كما لو كنت غائبـــا عن الوعى .

فاجأه الهجوم فتوقف عن الكلام وظل فاغر الفم ، تابع الكابتن :

- من الذى سيقوم بالسيطرة على الركاب إذا حدثت مشاكل وليـــس معـــك سوى ثلاثة من رجال الأمن ضمن الطاقم ، هل يمكنهم وحدهم السيطرة .

تساءل بدهشة :

- ولماذا المشاكل ؟

اكتفى بأن قال :

- أنت قصير النظر .

وأضاف وهو يشير إليه بالخروج :

- عليك أن تتوقع جميع الاحتمالات .

لكنه لم يخرج وظل في مكانه ؛ فقال الكابتن وقد نفذ صبره :

- فيه إيه تانى .

رد مرتبكا :

- هل سيتناول طاقم الضيافة وجباتهم هنا ؟

تساءل الكابتن وصوته يجمع بين الدهشة والغضب والاستغراب والاستنكار :

- ولماذا يأكلون هنا ؟ لماذا لا يأكلون في مراكز الخدمة ؟!

غمغم متلعثما وهو يشير إلى الحاوية الصغيرة :

- والوجبات ؟

تمتم الكابتن لنفسه "من المؤكد أنه غبى" وقال وهو يمسك بعضده ليقوده إلـــى باب الكابينة المدرع :

- هذه الوجبات خاصة بطاقم القيادة لا أحد يعلم الظروف ، وعليك أن تنفذ التعليمات كاملة .

أخرجه ، وأغلق خلفه الباب .

بادر فور أن وجدها واقفة تنتظر أمام باب الكابينة المدرع قـــائلا بصــوت اجتهد في أن يجعله خافتا :

- **ربنا يستر ، نحن أمام أزمة حقيقية .**

تمتمت لنفسها بثقة : "واضح أن الكابتن لم يأخذ برأيه وأخذ برأيك أنت، وهو يتوقع حدوث أزمة بين الطاقم ، تأكد أنه لن تكــون هناك أزمـــة مـــع الطاقم ، يستطيع أفراده أن يتحملوا حتى العودة" .

قالت بهدوء والابتسامة ترف على شفتيها :

- **أفراد الطاقم يستطيعون تحمل المسئولية ، اطمئن .**

- **أى مسئولية ؟!**

أوشك أن يصرخ وهو يقولها حتى إن بعض ركاب الدرجة الأولى التـى يقفان فيها نحوا عن عيونهم الأقنعة الواقعية من الضوء والتفتوا تجاه الصوت الحانق ، تمالك نفسه وتابع :

- **عن أى مسئولية تتكلمين ؟**

ردت دون انفعال :

- أنا واثقة أنه لن يغضب منهم أحد وأنهم ...

قاطعها بحدة :

- ولماذا يغضبون ؟ المشكلة في غضب الركاب .

تساءلت بدهشة :

- ولماذ يغضبون ؟

ولم يستغرق فهمها الموقف إلا دقائق كان فيها منحنيا عليها يهمس في أدنها ، فوجئت تجد نفسها وهى تصرخ فيه بغضب ظاهر :

- هذا كلام فارغ .

نظر الجالسون إليهما في ريبة ، فآثرت أن تمسك بمعصمه تقوده إلى مركز الخدمة القريب ، وما أن وصلا إليه حتى باغتته بحدة :

- أنت واثق من هذا التوزيع .

رد بضيق .

- هذه أوامره حرفيا .

تابعت وحدتها تتزايد :

- هل يعقل أن يشترك ستة ركاب في وجبة واحدة وهو يحجز لنفسه هذه الكمية .

سكت فواصلت :

- ثم كيف توزع على بعض الركاب وجبة كاملة ونعطى البعض الآخر سدس وجبه ، هذا كفيل بأن يخلق ثورة حقيقية وليس مجرد غضب .

قال وصوته يشى باستسلام العاجز :

- وماذا يمكن أن نفعل ؟

نظرت إليه بحدة فأضاف :

- هذه هى أوامره هل تستطعين تغييرها .

تطلعت إليه وقد انتابها الصمت فجأة ، هل تفكر في إجابة ، وتطلع إليها والسؤال يؤذنها بالتحدى ، هل كان يفكر في إجابتها المتوقعة ؟

"ما هذا السخف ، هل تحاول التخلص من المسئولية وإلقاءهـا علـى الآخرين ٠٠ حدود مسئوليتي واضحة ، أنا لم أتخذ قرارا ٠٠ أنـت قبلـت قرارات واضحة البطلان ٠٠ لو كنت في مكانى ما تغير الأمـر ، القـانون يخوله وحده حق اتخاذ القرار ٠٠ قراره منعدم لوضـوح الـهوى وتحقـق المصلحة الشخصية ٠٠ إلى أن يثبت ذلك علينا التنفيذ لصدوره من الجهـة الشرعية" ٠

اغتصبت ابتسامة وغلفت صوتها بنغمة رجاء وهى تقول :

- نستطيع معا أن نفعل شيئا ٠

- كيف ؟

تابعت وصوتها لم يتحرر من النغمة غير المعتادة :

- مثلا نستطيع أن نوزع الوجبات المخصصة للطاقم على الركاب ٠

صمت مفكرا فاستمرت كأنها تطمئنه :

- من الممكن القول بأن الطاقم تنازل عن هذه الوجبات ٠

ظل صامتا فواصلت :

- ووقت الضرورة نقول إنه استولى على وجبات الطاقم ٠

هل كان يقصد تعليق موافقته حين قال :

- ليست مشكلة ، بشرط أن يوافق أعضاء الطاقم ٠

وهل أرادت قطع الطريق على محاولته حين قالت :

- أترك هذه المسألة لى ، أنا واثقة ٠

لم ينبس ، وتابعت حتى لا تمنحه فرصة للعدول عما اعتبرته موافقة :

- تبقى حالات التوزيع الأخرى ٠

كأنما وخزته العبارة فقال بحسم :

- نحن لا نملك تغييرها ٠

ردت بهدوء :

- لماذا لا نحاول ؟

رد بحدة :

- لا مجال لأى محاولة .

وسكت لحظة واصل بعدها كأنما يبرر موقفه :

- أى تغيير فيها يعنى مخالفة الأوامر ، وأنا لست مستعدا لتحمل مسئولية أى مخالفة .

ألحت عليها رغبة في أن تبصق ولكنها تمالكت نفسها بعد أن أخرجت منديلها الورقى ، وتابعت وهى تحاول ألا يشى صوتها بمشاعرها :

- ليس مطلوبا منك مخالفة الأوامر ، لكن لو طلب واحد التنازل عن حقه المقرر في وجبة كاملة لغيره ، هل تستطيع أن ترفض ؟

سكت وقد أحس بأنها تستدرجه إلى حقل ألغام ، تابعت :

- التنازل عن الحق حق قانونى ، هذا من الثوابت المعروفة .

تساءل محاولا قطع الطريق على ما تفكر فيه :

- هل ستفرضين عليهم التنازل ؟

سارعت :

- طبعا لا ، لكن من الممكن أن يتنازلوا بمحض إرادتهم إذا اقتنعوا .

- وكيف يقتنعون .

- سنشرح لهم الموقف بإيجاز ، ولآ أظن أن أحدا منهم سيرفضه .

قاطعها وقد أحس ببوادر هزيمة في الأفق :

- أى كلام في الموضوع سيخلق بلبلة ويثير مشاكل لا مبرر لها .

قاطعته في محاولة أخيرة للوصول إلى الهدف :

- يمكن معالجة الأمر بهدوء شديد ومن غير أن يحس أحد إلا من نتكلم معه مباشرة ، ومن غير أن يحس بحجم المشكلة .

ابتسم ، فردت على ابتسامته بمثلها ، وظنت أنها حققت انتصارا كاملا حين قال :

- شوفى ، أمامك فترة قصيرة للمحاولة ، وأنا لا علم لـــى مطلقــا بــهذا الموضوع ، ولم تحدثينى فيه ، لقد كان مبادرة شخصية منك وأنت وحـــدك تتحملين مسئوليتها .

هل كانت نظرة إشفاق تلك التى أطلت من عينيها ، وهل كـــان مــا غلــف صوتها نغمة سخرية وهى ترد عليه :

- اطمئن ، اطمئن تماما ، لن يعرف أحد أبدا بهذا الاتفاق .

واستدارت لتبدأ خطواتها الأولى في مهمتها فاستدرك :

- طبعا الأجانب لن تتحدثى معهم مطلقا في الموضوع .

حاولت أن تتكلم لكنه تابع بصرامة :

- هذه المسألة غير قابلة للمناقشة على الإطلاق .

هزت رأسها موافقة وهى تسير مسرعة كأنها خشيت أن يبــدأ سلســلة مــن التراجع تحبط كل ما تفكر فيه .

- ١٤ -

رفعت الستارة المسدلة على باب الدرجة الأولى ووقفت تستكشف ، كان أعضاء وفد المباحثات الرسمية قد انتشروا فوق المقاعد وهم في حالة استرخاء كامل ، قد مددوا أقدامهم على المساند الممتدة من أسفل المقاعد ، وفتحوا ظهورها حتى آخرها ، ووضعوا الأقنعة الواقية من الضوء على العيون ، وقفت مترددة إلى أن التقطت عيناها واحدا ليس على عينيه عصابة ، وجهاز الاستماع فوق أذنيه فيما يبدو أنه متابعة لفيلم يعرضه فيديو الطائرة ، تمتمت لنفسها بثقة : "إنه هو" ومضت إليه متهادية حتى إذا اقتربت من مقعده حرصت على أن تدق الأرض بكعبها دقات واضحة . التفت فرآها مقبلة فابتسم بحفاوة :

- أهلا يا قمر .

قالت بزقة :

- أهلا يا باشا .

همس بسرعة وهو يلتفت تجاه معاليه الذى كان الإيقاع المنتظم لتدفقاته الأنفية يؤكد أنه يغط في نومه :

- لأ بلاش دى وحياة عيونك ٠

وكأنما أراد أن يزيل انطباعها السريع فأضاف :

- كفاية قوى سيادة اللواء ٠

ظلت واقفة إلى جواره تبتسم ، فتساءل وقد وشى صوته بالثقة والاعتزاز :

- المجنونة ذات العيون الزرق برضه ؟

ابتسمت وهو تقول :

- لا ، المرة دى أنا ٠

غمرته نشوة حقيقية تفجرت في الأعماق ، منذ زمان طويل لم يعش مثل هذه اللحظات ، حتى اللائى بتمسحن به إنما يقتربن بدافع المصلحة لا الإعجاب ، آن لك أن تطمئن ، فمازالت جاذبيتك المعهودة قادرة على أن تحدث تأثيرها ، أشار إلى مقعد مزدوج قريب من الباب وقال برقة وهو ينهض متجها إليه :

- هنا أحسن ٠

أمسك بمعصمها في ألفة وأجلسها وجلس إلى جوارها بحيث يكون معاليه في نطاق البعد المباشر لنظره خلفها "يجب أن تبدأ أنت الكلام ، هذه هى أصول الشغل من أيامك الخوالى" ، ما كادت تلتفت إليه بعد أن اعتدلت في جلستها حتى قال وابتسامة كبيرة تغمر وجهه الأحمر اللامع :

- كنت أعرف أنك قادمة ٠

وانتظر لحظة كأنه يختبر تأثير الكلمات ، لكنها عقبت بهدوء بدا خاليا من الانفعال :

- بالتأكيد ٠

بدا هدوؤها محبطا ، جرب أن يتابع في محاولة أخرى :

- لم تسأليني كيف عرفت ٠

لكنها لم تسأل ، ولم تنتظر منه إجابة بل بادرت :

- الوفد الرسمى العالى المستوى لابد من إحاطتـــه بكــل وســائل الراحــة والعناية، ولابد لى من أن أتأكد من ذلك بنفسى .

أحبطته الكلمات مع أنها لا تخلو من الذوق . نظر إليها بإمعان ، "تبدو فـــي الظاهر مختلفة لكن واضح أنها معلمة تعرف كيف تناور ، لكن كان غـــيرك أشطر" قرر أن يصمت تاركا لها أن تبدأ ، لكنها ظلت صامتة والتردد واضح في نظرتها وحركة أصابعها ، تمتم لنفسه : "مازلت غير مكتملة الخبرة وليس لديك قدرة كافية على المناورة الكاملة . النساء صاحبات الخـــبرة الواســعة يجدن المتعة الأساسية في المناورات التمهيدية والمقدمات الأولية ، لأن مـــن المؤكد دائما عندهن أن المعركة الأخيرة قصيرة الأجل" .

- **أنا جاية وعندى أمل .**

لمح في الأفق القريب راية بيضاء لكن المؤشرات الدالة أصابتـــه باحبــاط ، "خسارة ، إنها من نفس الطراز الذى يريد أن يفرض الثمن مقدما ، هل تقطع عليها الطريق" .

ابتسم وهو يقول في عينيها :

- **أعرف .**

هل كان ما أصابها دهشة حقيقية وهى تسأله محدقة فيه

- **كيف عرفت ؟**

فأجاب بهدوء وهو يشير إلى رأسه :

- **دا شغلنا بأه .**

تحولت الدهشة إلى حيرة ، هل معرفته تيسر مهمتها أو تصعبها ، لقد كـــانت تعتمد على رد فعل انفعالى يجد متنفسا في الاستجابة الفورية . لكن إذا أزاح التفكير الانفعال إلى الخلف قد يتغير الموقف بمجرد بحث الاحتمالات .

هل كانت تغريه بابتسامتها الغامضة حين قالت :

- **دا يزود أملى .**

وهل كان قد قرر الوصول إلى تحديد كامل لما سأل :

- في إيه بالضبط .

- في أن تقنع معاليه وباقى أعضاء الوفد بالمشاركة لحل المشكلة .

انتقلت الحيرة إليه ، ما دخل معاليه وأعضاء الوفد في خلافها مع صديقها ، هل تطلب تدخلا رسميا على هذه المستوى لحل مشكلتها معه ، لم يبق إلا أن تطلب عرض الأمر على جلسة عاجلة لمجلس الأمن ، يبدو أن فيروسا أصاب النساء على هذه الطائرة ، إنها ليست ذات العيون الزرق وحدها التى أصيبت بالجنون .

تساءل بسخرية :

- ولماذا لا تطلبين قوات لفض الاشتباك ؟

وصلتها الرسالة ، داخلتها رعدة كما لو أن تيارا مسها ، امتقع وجهها وهي تقول :

- هل تتوقع سيادتك حدوث اشتباكات .

تابع سخريته :

- ولم لا ؟ كل المؤشرات تدل على ذلك .

تمتمت بأسى :

- ستكون كارثة .

تأملها صامتة تفكر "الحلو ما يكملش" ، بلغ انزعاجها حدا أضفى عليها اضطرابا بلا حدود ، ظلت تعبث بأصابعها والعرق يتصبب وينداح قطرات على ذقنها ورقبتها ، هل تجدى محاولة أخرى قبل وقوع الكارثة ، تطلعت إليه وتوتر صوتها يوحى بقلق :

- هل يمكن أن أكلم معاليه في الموضوع .

اتسعت ابتسامته وهو يسأل :

- لماذا ؟

- قد أستطيع أن أقنعه بالمساهمة في الحل .

أوشك أن يقهقه لولا أن تماسك ، واضطر أن يبذل مجهودا حتـــى لا تكـــون السخرية بلقاء :

- وليه لا ٠ معالى الباشا هوايته أن يحل بنفسه مشاكل الجماهير ٠

- طيب اسمح لى ٠

نهضت متجهة إليه ، لكن سيادته مديده وأمسك معصمها بقوة ليجلسها ثانيـــة وهو يقول بهدوء ٠

- طبعا تعلمين أن الموضوع ليس بهذه البساطة ، هناك إجراءات لابد مـــن اتباعها ٠

حدقت فيه بدهشة ، وتابع :

- يمكنك أن تكتبى الموضوع بالتفصيل ، وتأكدى أننى ســأعرضه بنفســى على معاليه فور العودة ٠

تمتمت بأسى : "من المؤكد أنه مجنون ، لو وصلنا لن تكـــون هنـــاك مشكلة ، ستصبح جزءا من الماضى" ٠

- تمام معالى الباشا ٠

انتفض واقفا تاركا إياها في المقعد متوجها إلى معاليه ، نظر إليه معنفا قبـــل أن يقول :

- مفيش فايدة فيك ، تنتهز أى فرصة عشان تلغوص ٠

أربكه التعنيف فانحنى على معاليه وهمس بكلمات قصيرة وإصبعه يشير بحركة دائرية إلى جانب رأسه ، قهقه معاليه وهو يشير بإصبعه إليها أن تقبل في نفس اللحظة التى كان سيادة اللواء فيها يؤدى التمام رافعا يـــده بالتحيـــة العسكرية مردفا إياها بصوت هادئ لكنه حاسم :

- معالى الباشا في انتظارك ، تفضلى ٠

ابتسمت وهى تجفف عرقها لتنهض متجهة إليه "لو أنه علـــى موقفـــه مـــن الرفض ما استدعاها لمقابلته ، مازال هناك أمل" ٠

- معالى الباشا ، أنا سعيدة جدا بمقابلة سيادتك ٠

أشار إليها أن تجلس في مواجهته ، وراح يتفحصها بإمعـــان قبـل أن يشير إلى سيادة اللواء أن يتنحى جانبا .

لم تستغرق وقتا طويلا بل بادرت فور جلوسها ، وفي صوتــها نــبرة ضراعة :

- معالى الباشا ، حياة الناس على هذه الطائرة بين يديك ، تستطيع معـــاليك بقرار منك أن تنقذ الموقف وأن تجعلنا جميعا نعود بسلام .

تحولت نظرة السخرية إلى إشفاق فقال بهدوء وقد مسته الضراعة :

-ما المشكلة ؟

صمت يستمع إليها من غير أن يعقب ، حاولت جهدها أن توجز فـــي عرض المشكلة ولكنها لم تفلح ، بدأت تؤكد موقفها بشرح بعض المخـــاطر التى قد تنتج عن سوء توزيع الوجبات المتوفرة ، عقب معاليه بهدوء :

- بالتأكيد نحن أمام موقف صعب ، وعلينا أن نفكر جيدا في مواجهته .

مسها الإحساس الذى عبّر عنه بأمل جديد ، أزهر عندما سألها :

- ماذا تقترحين أنت .

ابتسمت وهى تقول بحرارة :

- المساواة الكاملة في التوزيع ، فهى التى تضمن حدا أدنى للجميع ، وفـي نفس الوقت تمنع أى احتمال للفوضى .

عقب بهدوء :

- فكرة جيدة ، هذا مؤكد ، يمكن اعتبارها اقتراحا تتم دراسته ، لكن الأهـم الآن هو كيفية الاحتفاظ بالوجبات في مكان أمين حتى لا تمتد إليها الأيــدى إلى أن يتم اتخاذ القرار المناسب .

كأنها لم تفهم ما يرمى إليه حتى سألها مباشرة :

- ماذا تقترحين بشأن المكان ، أنت تعرفين هذا الطراز مـــن الطـائرات جيدا ، أما معلوماتى فقديمة بعض الشيئ .

قالت بهدوء :

- يجب أن تبقى الوجبات في أماكنها .

وأضافت كأنما تحاول إقناعه :

- إنها أماكن مجهزة لحفظها .

عقب وهو يفكر :

- فكرة غير عملية ، في خلال فترة قصيرة ستتسرب المعلومات عن نقص الطعام ، وستبدأ مرحلة من الفوضى ، ولا أحد يضمن ما يمكن أن يحدث .

نهض فنهضت ، وأخذ يتجول بين المقاعد ومن خلفه سيادة اللواء بينما ظلت في مكانها تنتظر ، تمتم لنفسه "ربما كان هذا هو المكان المناسب" التفت وقال لسيادة اللواء بحسم :

- سيادة اللواء ، يتم إحضار جميع الوجبات التى على الطائرة إلى هنا فورا ، وممنوع منعا باتا التصرف في أى منها إلا بإذن شخصى منى .

رفع يده بالتحية العسكرية وهو يقول :

- تمام معالى الباشا .

التفت معاليه فكأنما أدرك وجودها ، حدق في عينيها ثم مد يده إليها ، فمدت يدها إليه ، حياها بحرارة وهو يقول :

- أنت قمت بعمل عظيم .

ظلت صامتة تفكر ، تابع معاليه بلطف :

- يمكنك أن تستمرى في مجهودك ، فهو لن يضر على أى حال .

ونظر إلى سيادة اللواء آمرا :

- ضع اسمها في اللجنة التى سنشكلها لدراسة كيفية التوزيع .

- تمام معالى الباشا .

ورفع يده بالتحية العسكرية .

إشار إليها بالانصراف ، سارت ببطء كأنها لا تستوعب ما حولها ، وما كادت تخرج حتى استقبلها السوبر فايزر ليسألها بلهفة :

- هل وافقوا ؟

غمغمت فلم تتضح كلماتها • تابع يستوضح :

- يعنى رفضوا ؟

جهدت في أن يكون صوتها واضحا ، وردت ببطء :

- شكل لجنة ادراسة كيفية التوزيع •

نظر إليها ببلاهة ، فتابعت :

- اختارني لأكون عضوا فيها •

عقب بنغمة فيها سخرية اللا مبالاة :

- صحيح ، مبروك •

وصمت لحظة ليضيف :

- ومتى سيبدأ التوزيع ؟

- لم نتحدث في التوقيت ، لكن واضح أنه ليس هناك داع للعجلة • معاليه يفكر فيما هو أهم •

لم يعرف هل كانت تحمل كلماتها إحساس السخرية أو القرف • وجد نفسه يتساءل برغم الصدمة :

- ما هو هذا الأهم ؟

- معاليه يفكر في تجميع جميع الوجبات معه في الدرجة الأولى حتى تكون في مكان أمين •

برغم كل ما كان فيه استطاع أن يقول :

- عنده حق ، لازم يحسب حساب الظروف •

والتفت إلى الناحية الأخرى حتى لا ترى في عينيه الدموع •

- ١٥ -

جلسا متجاورين على حافة مقعدين متصلين في مقدمة الدرجة السياحية ، لا تنظر إليه ولا ينظر إليها ، أغمض عينيه وعيناها نصف مغمضتين ، استوعبهما الصمت برغم الحركة المحيطة ، وكأنهما تمثالان من فوم قديم هش حال لونه وينتظر هبة ريح حتى يتفتت . ما حدث ويحدث لا يمكن أن يكون حقيقة ، ولا يمكن أن يكون حلما ، إنه كابوس خانق يمسك بالعنق حتى تجحظ العيون الدامية ، لكنها ترى ، أفظع شيئ أنها ترى ، أن ترى العين القاتل بوضوح وهو يغرس سكينه في صدرك بتؤدة ثم يمسح يديه بهدوء مبتسما وأنت عاجز حتى عن الصراخ ، ليتك كنت أعمى لا تبصر .

- أنت يا .

بدلا من أن يرد عليه مد يده وأمسك بمعصمها وسألها :

- من ده ؟

أجابت وهى ما زالت نصف مغمضة العينين :

- دا صوت سيادة اللواء .

تحامل ووقف على قدمين غير ثابتين في اللحظة التى كان سيادته يكرر نداءه بضجر :

- **أنت يا بنى آدم .**

ظل واقفا لم يبرح مكانه . أقبل سيادته عليه وسأله بحدة :

- **ما بتسمعش ! أنت السوبر فايزر ؟ .**

رد بصوت خافت :

- **نعم .**

تفحصه بعينى صقر على وشك الانقضاض ، وفجأة سأله :

- **أنت عيان ؟**

غمغم ولم يبن ؟

- **لا .**

عقب سيادته معنفا :

- **لماذا لا تقف معتدلا .**

بذل مجهودا في أن يتماسك ويتوازن ، تابع اللواء :

- **أبلغتك المدام بقرار معالى الباشا .**

تمتم :

- **نعم .**

واصل اللواء :

-**وهل أبلغت أنت الكابتن بالقرار ؟ .**

- **لا ، لم أتمكن من إبلاغه .**

تساءل محنقا :

- **ليه ؟**

رد بفتور :

- **لأنه أغلق جهاز الاتصال الخاص به .**

واصل اللواء وصوته يحمل نذر غضب :

- **ولماذا لم تبلغه شخصيا .**

قال بنفس نغمته الفاترة :

- لأنه أغلق الباب من الداخل .

تراجعت نذر الغضب وسيادته يعقب :

- هذا أفضل ، حتى لا يحدث تنازع في القرارات .

حدق سيادته في عينيه وهو يشد جسده في حالة انتباه قبل أن يقول :

- نحن في حالة طوارئ ، ومن هذه للحظة فإن معالى الباشا هو السلطة الشرعية على الطائرة ، وعلى جميع من فيها الالتزام الكامل بتعليمات معاليه، وإلا ستعتبر أى مخالفة للأوامر عصيانا تترتب عليه أقسى العقوبات .

وسكت لحظة ليحدق في عينيه قبل أن يكرر :

- أقسى العقوبات ، واضح .

صمت ولم يعقب ، فكرر سيادته بحسم :

- هذا الكلام مفهوم ؟

غمغم دون أن يفصح ، فتابع اللواء :

- كويس ، كما توقعت تماما ، أنتم مستعدون للتعاون معنا .

وصمت لحظة ليضيف :

- بلغ الطاقم بتجميع الوجبات والمشروبات الموجودة على الطائرة في جميع الأقسام ، وتسليمها لسيادة العميد .

والتفت خلفه مشيرا إليه ، أدى العميد التحية العسكرية واستمر اللواء :

- سيادة العميد الآن هو أركان حرب غرفة العمليات تنفيذا لقرار معالى الباشا :

وصمت لحظة ليقول :

- مفهوم ؟ .

- مفهوم .

بدا الصوت صادرا من أعماق سحيقة ، مجرد صدى مكتوم متهافت لصدى صوت حصاة وقعت في الأغوار .

عقب اللواء بحزم :

- لا تكرر ما أقول ، قل دائما : تمام يافندم ٠

صمت السوبر فايزر ولم يعقب ، تابع سيادته آمرا :

- مع سيادة العميد لإجراء استطلاع أولى لحجم العملية قبل البدء في التنفيذ ٠

لم يكن قد سار خطوة واحدة حين فوجئ به كأنما يستدرك :

- هل قائمة الركاب معك ؟

هز رأسه بالموافقة ، بالرغم من حالة الغيظ التى انتابت سيادة اللواء فإنه قال متصنعا عدم الانفعال :

- هاتها ٠ وبعد أن تقوم مع سيادة العميد بالاستطلاع احضر لمقابلتى ، ستكون هناك أوامر جديدة في حينه ٠

ومد يده يتسلم القائمة وراح يلقى نظرات سريعة وهو يقلب صفحاتها ، ثم جلس إلى جوارها وأخذ يتفحصها بإمعان ٠ ولما انتهى من تفحصها سألها من غير أن يلتفت إليها :

- هل يوجد عسكريون على الطائرة ؟

قالت بصوت أشبه بصوت النائم :

- أظن ٠

التفت اليها وكلمات الزجر على طرف لسانه ، لكن ما كاد يرى حالتها حتى توقف ، ظل لحظات صامتا إلى أن تساءل برقة بدت حقيقية :

- هل أصابك مكروه ؟ لابد أنه هو ، أعرف كيف آخذ لك حقك ، اطمئنى ٠

ظلت صامتة ، فقال سيادته بلطف :

- يمكنك أن تستريحى ، واضح أنك مجهدة ٠

وسكت لحظات ثم قال :

- خسارة لن تستطيعى الاشتراك في اللجنة ٠

بقيت في حالة الصمت كأنها غائبة عن الوعى ، فتابع سيادته وهو ينهض :

- سأبلغ معالى الباشا اعتذارك .

والتفت إليها بعد أن سار خطوات في طريقه ليقول بصوت عال :

- معاليه بالتأكيد حريص على راحتك ولن يرفض طلبك بترك اللجنة وإن كنت شخصيا حزينا لذلك .

وفي خلال فترة قصيرة جدا عاد مبتسما ليبلغها بقرار معاليه ، وقف في حركة استعراضية وكأنه يلقى بيانا رسميا في مؤتمر صحفى :

- أنقل إليك تحيات معالى الباشا ، وشكره العميق على جهودك المخلصة ، وأطيب أمنياته لك بالشفاء العاجل .

خيل إلى سيادته أنها لم تسمع شيئا ، ومع ذلك استمر في إلقاء بيانه :

- وقد تفضل معاليه بقبول اعتذارك عن عدم الاستمرار في عضوية اللجنة نظرا لظروفك الصحية .

وصمت لحظات ليضيف مبشرا وقد تهلل وجه سيادته :

- كما تفضل معاليه باختيار زميلك السيد سوبر فايزر ليحل محلك في عضوية اللجنة .

ولم يكد ينتهى من كلماته حتى فوجئ بتصفيق عدد من الركاب القريبين الذين كانوا يقظين وقد شدتهم الكلمات الرسمية بالرغم من عدم فهمهم الموضوع ، لكنهم أحسوا بفطرتهم أن شيئا غير عادى يحدث وداعبهم الأمل في أن يكسر حدة الملل في الرحلة الطويلة .

في نفس اللحظة التى لعلع فيها التصفيق وصل سيادة العميد ومن خلفه السوبر فايزر ، أدى سيادة العميد التحية العسكرية بصرامة محترف بينما رفع السوبر فايزر يده بتحية شوهاء ، لا هى عسكرية ولا هى مدنية ، تمتم سيادة اللواء مشجعا وهو يبتسم :

- مطهش ، ييجى منك ، بالتأكيد حتتطم وتبقى أحسن .

سارع سيادة العميد بالاستئذان لتقديم تقرير عاجل عن المهمة التى كلف بها فأذن له سيادة اللواء .

تكلم العميد بصوت خافت لكنه شديد الوضوح :

- تمام سيادة اللواء ، الأهداف المطلوبة موزعة على ثلاث نقاط تمركز ، وحتى يمكن جمعها في موقع واحد لابد من مراعاة اعتبارات التأمين اللازمة لهذا الموقع ، ولابد من وجود قوة حماية وعناصر إنذار مبكر ، أقترح أن يتم إخلاء درجة رجال الأعمال لتحتلها قوة الحماية ، وأقترح ...

قاطعه سيادة اللواء :

- ستتم مناقشة جميع الاقتراحات وتقدير الموقف في جلسة عاجلة يرأسها معالى الباشا شخصيا .

وصمت لحظة ليضيف وهو ينظر إلى سيادة العميد بمودة :

- ستحضر أنت هذه الجلسة باعتبارك أركان حرب غرفة العمليات الخاصة .

غمرت وجه العميد مشاعر الامتنان وقال بولاء من يتقرب بقربان :

- بالتأكيد سنتشرف بتوجيهات سعادتك .

نظر سيادة اللواء إليه كأنما يلومه وهو يقول :

- لقد تفضل الباشا باختيارى نائبا لمعاليه .

عقب العميد وقسماته تنبئ بالبهجة :

- أنا مؤمن دائما بأنه لا يصح إلا الصحيح .

ابتسم سيادة اللواء له بمودة حقيقية وهو يقول :

- أنت تعرف أننى أكره التواضع الكاذب .

قاطعه سيادة العميد :

- الحقيقة أن سعادتك أكبر من كل كلام .

عقب سيادة اللواء بلهجة معاتب محب :

- أعرف إخلاصك ، لكن خلنا الآن في المهم .

وسكت لحظات ليضيف :

- جهز نفسك للاجتماع ٠

والتفت إلى السوبر فايزر وقال آمرا :

- أما أنت فستأتى معى لتصحبنى في جولة تفقدية ٠

خطا سيادته خطوتين ثم توقف قبل أن يتحرك السوبر فايزر من مكانه ٠ وعاد ثانية إلى حيث كان واقفا في مقدمة الدرجة السياحية ، لوح للسوبر فايزر بقائمة الركاب وهو يسأله بصوت هامس :

- هل يوجد عسكريون على الطائرة ؟

اضطر السوبر فايزر إلى الانحناء ليسمع السؤال واستمر منحنيا وهو يجيب :

- نعم يا فندم ٠

- كم ؟

- ثلاثة من أمن الشركة منتشرون بين الركاب ٠

- تستطيع أن تحدد مواقعهم ؟

- ممكن يا فندم ٠

- هل يوجد عسكريون آخرون ؟

- نعم يا فندم ٠

- كم ؟

- ثمانية ، كانوا في دورة وهم عائدون معنا بعد انتهاء التدريب ٠

كأنما فوجئ سيادته بالإجابة فتوقف لحظات قبل أن يتابع وهو يلوح بالقائمة :

- هل هم موجودون هنا ؟

- طبعا يا فندم ٠

- لكن القائمة لا تحتوى على رتب عسكرية ٠

- هذا هو النظام المتبع يا فندم ٠

- هل تعرف رتبهم ؟

أجاب بخجل وكأنه يخشى أن يبادر سيادته إلى لومه ووصفه بالتقصير :

- لا يافندم ٠

- طيب هل تعرف أعلى رتبة فيهم ؟

رد بنفس النغمة الخجول :

- لا يافندم ٠

تابع سيادته وصوته يعكس ضيقا حقيقيا :

- طيب ، هل من الممكن معرفة قائد الوحدة ؟

رد السوبر فايزر مترددا وكأنه مل من تكرار نفيه :

- نحاول يا فندم ٠

- ١٦ -

لم يكن معالى الباشا في حاجة إلى تفكير طويل حتى يقرر أن مقـــاعد الدرجة الأولى المحيطة به قد تصلح للجلوس أثناء السفر بالنســـبة لركـــاب عابرين ليس أمامهم عمل رسمى يقومون به ، ولكنها بوضعها التى هى عليه لا تصلح قاعة للاجتماعات للجان فنية مؤلفة من شـــخصيات علـــى أعلـــى مستوى ، كما أن من المتوقع أن يحضر شخصيا بعض جلسات هذه اللجان ، ولذلك لم يكد سيادة اللواء يحضر إليه لإبلاغه بأنهم جاهزون لعقد الاجتمـــاع الأول للاستماع إلى توجيهات معاليه حتى أبلغه بقراره بتشكيل لجنة خاصـــة لإعادة تجهيز الموقع بصورة عاجلة ، بحيث يكون جاهزا للمهام الجديـــــدة. وكان ذلك مفاجأة كاملة لسيادة اللواء ، الذى أراد أن يعبر عن تقديسه المطلق لتجليات عبقرية معاليه التى لا تنقطع فشد نفسه وهو يؤدى التحية العســـكرية قائلا بصوت ملؤه الإعجاب والولاء :

- تمام معالى الباشا ، والله العظيم عبقرى ، أكبر عبقرى شفته ، شـــفته دا إيه، أكبر عبقرى في التاريخ ، معاليك لا يفوتك أى شيئ ، أى شيئ .

قاطعه معاليه بتواضعه المعهود :

- خلاص ، المهم نفذ بسرعة حتى لا تتعطل الاجتماعات .

- تمام معالى الباشا .

وقد تم تشكيل اللجنة من أعضاء الوفد الرسمى الذين اضطروا للاستعانة ببعض عناصر طاقم الضيافة نظرا لعدم وجود سابق خبرة في أعمال مماثلة ، ولكنها العبقرية الوطنية التى تتجلى دائما في المواقف الصعبة والتاريخية ، والتى تؤكد مقدرة المواطن على مواجهة التحديات بفضل التزامه المطلق بالتوجيهات السامية لقيادته الرشيدة . وقد التزمت اللجنة في عملها بتوجيهات معاليه ، وكان سيادة اللواء يشرف بنفسه على مراحل العمل وخطواته وينقل توجيهات معاليه إلى العاملين في اللجنة ، فقد أشار إلى ضرورة تحريك المقعد الأول ليتوسط القاعة ، كما أشار إلى أن المقاعد الأخرى يجب أن تقسم بحيث يوضع قسم منها أمام المقعد الأول في شكل نصف دائرة ، ويوضح القسم الآخر في شكل مجموعات مختلفة على جوانب القاعدة . وتابع معاليه عمل اللجنة في مراحل متتابعة ، وأعرب عن ارتياحه لمعدلات الإنجاز المتسارعة ، وكان لزيارته الشخصية لموقع اللجنة العامة أثره المباشر في حفز الهمهم للانتهاء من الإعداد النهائى للموقع في التوقيت الملائم .

وقد كانت هذه اللجنة أسرع اللجان إنجازا وإن استغرق عملها بعض الوقت ، مما أدى إلى تأخير موعد عقد الاجتماع الأول فترة قصيرة ، وقد تفضل معالى الباشا بتفقد الموقع بعد الانتهاء من العمل فيه ، وأعرب عن سعادته ورضاه عن مستوى الأداء الذى تحقق ، وعن الصورة النهائية للموقع الذى أصبح جاهزا تماما ، صرح سيادته وهو يأخذ مكانه فوق المقعد الأول وأمامه أعضاء الوفد وقوفا في حالة الانتباه ينتظرون بفارغ الصبر تعليق معاليه :

- هذا إنجاز عظيم في زمن قياسى وأنا أحيى كل الذين عملوا في هذا المشروع .

قال سيادة اللواء :

- تمام معالى الباشا ٠

ابتسم معاليه وهو يشير إليه أن يتكلم ، فقال :

- الفضل في هذا الإنجاز لتوجيهات معاليكم شخصيا ، نحن جميعا لم نكن إلا مجرد أدوات تنفذ هذه التوجيهات ٠

قاطعه معاليه :

- هذا الإنجاز يؤكد أننا قادرون على مواجهة الصعوبات والتغلب عليها ٠

تابع سيادة اللواء :

- تمام معالى الباشا ، بفضل توجيهات معاليكم ٠

قاطعه معاليه :

- الثقة في القيادة مسألة بالغة الأهمية ، أنا واثق أن بعضكم ربما لم يدرك الهدف من إعادة تجهيز القاعة على هذا النحو ٠ ولكنكم مع ذلك عملتم بجد وإخلاص ، وهذا هو أول الدروس المستفادة من هذه العملية ٠

صمت معاليه لحظات تنقل فيها بصره بين الواقفين أمامه في حالة انتباه ثم قال بتؤدة وهو يضغط على الكلمات :

- الثقة الكاملة في القيادة والولاء المطلق لها والتنفيذ الدقيق لأوامرها هى القواعد الأساسية لتحقيق النصر ٠

عقب سيادة اللواء :

- تمام معالى الباشا ٠

قاطعه معاليه :

- لا تقاطعنى ٠

وشى الصوت بنذر غضب مفاجئ ، لدرجة أن سيادة اللواء لم يستطع أن يعقب على الأمر بالتمام المعتاد ولمح أن في الأفق مؤشرات غير مواتية ٠

ركز معاليه بصره في بصر اللواء وهو يسأله متظاهرا بالهدوء :

- أين الوفد الإعلامى المرافق ؟

دارت عيناه ، هناك حالات يتمنى أن يستطيع فيها الصمت ، لكن حياته كلها في كلمة لا ينطقها ، الحاقدون يحصون عليك الكلمات ، لكنك أنت تخشى تلك التى لم تقل ، مضطرا عليك أن تجيب وحاول في نفس الوقت أن يكون هناك مخرج :

- تمام معالى الباشا ، بعضهم عاد في المقدمة ، وبعضهم بقى بعد المباحثات في زيارات خاصة .

تابع معاليه تساؤله بهدوئه الذى ينذر بالعاصفة :

- معنى هذا أنه ليس معنا أحد من الإعلاميين ؟

سارع اللواء :

- تمام معالى الباشا ، لكن .

أوشك الغضب أن يتفجر ، حاول استباقه وإلا ضعت :

- لكن ماذا ؟

- تمام معالى الباشا ، معنا بعضهم .

- من منهم ؟

ومن أين لك حفظ الأسماء ، إنهم متشابهون ماذا يعنيك من أسمائهم :

- تمام معالى الباشا ، معنا الإعلامية التليفزيونية الكبيرة صاحبة القاعدة الجماهيرية الواسعة . ومعنا كذلك الكاتب المعروف بهواجس لاوس وأحلام سورينام .

- هذا الكاتب يعرف يكتب ؟

- تمام معالى الباشا ، دى شغلته .

هل تبخر الغضب فعلا حين قال :

- طيب هاته يقابلنى ، وأنتم جهزوا أنفسكم للاجتماع الأول .

- تمام معالى الباشا أوامر معاليك .

وقبل أن يخطو سيادة اللواء خطوة واحدة لتنفيذ أمر معاليه فاجأه منبها :

- طبعا بعد ما يقابلنى يحتفظ به هنا ولا يعود مرة أخرى إلى مكانه .

- تملم معالى الباشا ، أوامر معاليك ،

وقد عقد الاجتماع الأول متأخرا بعض الوقت نظرا للظـــروف التـــى صاحبت عملية إعادة تجهيز الموقع وحرص معاليه علـــى أن يعـــبر هـــذا التجهيز عن التقاليد الراسخة في مجال العمل الوطنى ، وكذلك الوقت الـــذى استغرقه اللقاء المطول الذى لم يكن في الحسبان ، إذ تفضل معاليه بـــإجراء مقابلة مع الوفد الإعلامى المصاحب ليؤكد بذلك احترامه الدائم لحق الراكـــب العربى في أن يعرف الحقائق كاملة واهتمامه المستمر بالتواصل مع جماهير الركاب من خلال اللقاءات المباشرة برموز اتجاهاتها المختلفة ، داعيا إلـــى أهمية متابعة الإعلام بصفة عامة والصحافة بصفة خاصة لكـــل إنجـــازات العمل الوطنى على الطائرة في هذه المرحلة الحساسة مؤكدا من جديد علـــى سياسته الثابتة وهى أنه لن يقصف خلال مدة بقائه على الطائرة في عهده قلم واحد ، وأنه شخصيا الضمانة الأساسية لحق التعبير فيها ،

وقد افتتح معاليه الجلسة بالإشادة بما تم من جهد في إنجاز الموقع الذى يعد تحفة حقيقية تصميما وتنفيذا ، وهو الإنجاز الذى تم في فترة قياسية ممـــا أكد بصورة قاطعة فاعلية توجيهات معاليه وبعد نظره في اختيـــاره لرجالـــه المخلصين ، وأعلن أن الإنجاز الذى تم يعتبر نموذجا يحتـــذى فـــي العمـــل الوطنى في كل موقع في الطائرة وخارجها ، ثم تفضل معاليه بعد ذلك بإلقاء بيان مطول عن تحديات المرحلة ووسائل مواجهتها ، وقد حدد معاليه في هذا البيان المبادئ الأساسية والقواعد المرجعية والتوجهات المحورية والتوجيهات الكلية والتوصيات العامة ، كما حدد معاليه الأهـــداف النهائيـــة والمرحليـــة وخطط العمل التفصيلية لتحقيق هذه الأهداف والخطوات التنفيذية لكل مرحلة منها ،

وبعد أن ألقى معاليه بيانه المكتوب طلب الحاضرون اعتبـــاره وثيقـــة تاريخية تحدد ملامح المرحلة وتوضح استراتيجيتها ، وقد تفضـــل معاليـــه بالموافقة ، وتم تشكيل لجنة عامة ضمت ممثلين عن اللجان الفرعية لدراســـة

البيان واستخلاص السياسات منه ، وصدر قرار بالإجماع باعتبار البيان الوثيقة الرسمية الأولى الحاكمة للعمل الوطنى على الطائرة خلال هذه الفترة التى تتسم بالحساسية البالغة .

ثم تفضل معاليه بعد ذلك بفتح باب المناقشة عندما وجه سؤالا مباشرا لسيادة اللواء :

- هل أنجزت اللجان الفرعية أعمالها ؟

وقف سيادة اللواء وأدى التحية العسكرية قبل أن يقول :

- تمام معالى الباشا ، منذ أن علمتم معاليكم بالأزمة وأنتم تتابعونها لحظة بلحظة ، وتتخذون الإجراءات التى من شأنها السيطرة على الأوضاع عملا على حل مشاكل الجماهير ، وقد تفضلتم معاليكم بالأمر بتشكيل ثلاث لجان هى لجنة تحديد الموقع ، ولجنة تأمين الموقع ، ولجنة دراسة اقتراحات التوزيع ، وأوضح العمل في هذه اللجان ضرورة إنشاء لجنة رابعة هى لجنة التنسيق ، وتم رفع الأمر إلى معاليكم فلم تتوانوا لحظة واحدة وأصدرتم القرار اللازم في هذا الشأن ، وقد عقدت كل لجنة من هذه اللجان عددا من الجلسات دون أن تنتظر أعمال تجهيز المقر الدائم لها إحساسا منها بخطورة المرحلة ، وتنفيذا لتوجيهات معاليكم بعدم الالتزام بالإجراءات الروتينية ونسف البيروقراطية ، والإسراع بتقديم دراساتها لحل المشكلة .

قاطعه معاليه :

- انت غاوى كلام ، إيه المقترحات اللى توصلتم ليها .

رد سيادة اللواء :

- تمام معالى الباشا ، جاى لمعاليك في التقرير .

قال معاليه بضيق :

- لا داعى لاستكمال التقرير ، ادينى الملخص كفاية .

قال سيادة اللواء :

– تمام معالى الباشا ، بالنسبة للجنة تحديد الموقع فإن اللجنة تـرى بعـد دراسة كل الاحتمالات والبدائل أن اقتراح معاليكم منذ البداية كان في غايـة التوفيق ، ويدل دلالة قاطعة على بعد نظر معاليكم ، ويؤكد ما تمتعون بـه معاليكم دائما من ثاقب الرأى ، ولهذا أوصت اللجنة بالإجمـاع بـأن يتـم تخزين جميع الوجبات والمشروبات في هذا الموقع .

عقبه معاليه بهدوء مستفسرا :

– طيب ولجنة التأمين .

تابع سيادة اللواء :

– تمام معالى الباشا . درست اللجنة بالتفصيل إجراءات تأمين الموقـع ، وانتهت من هذه الدراسة إلى ضرورة وجود قوات حماية متقدمة في موقـع مناسب ، مع أهمية وجود عناصر إنذار مبكر في مناطق التوتر المحتملة .

قاطعه معالى الباشا في ضجر :

– مفيش فايدة فيك ، غاوى كلام غاوى كلام ، حدد مباشـرة الإجـراءات العملية المقترحة :

أجاب سيادة اللواء :

– تمام معالى الباشا ، رأت اللجنة أن تقترح إجلاء المدنيين مـن درجـة رجال الأعمال ، وأن تتمركز في هذه الدرجة وحدة الحماية .

تساءل معاليه باهتمام :

– وهل لديكم قوات كافية ؟

أجاب سيادة اللواء :

– تمام معالى الباشا ، توجد وحدة عسكرية عائدة من مهمـة تدريبيـة ، وفي انتظار أوامر معاليكم للاتصال بقائدها للمساهمة في العملية .

قال معاليه :

– مفيش مانع .

وسكت معاليه لحظات قبل أن يضيف :

- طيب وعناصر الإنذار المبكر ؟

- في مواقعها معالى الباشا .

قال معاليه برضا وابتسامته تعلو وجهه الكريم :

- حتى الآن مستوى الأداء جيد .

وصمت برهة قصيرة ليضيف :

- طبعا بالنسبة للجنة التوزيع أظنها لم تنته ، فالمسألة تحتاج إلى دراسة متأنية ودقيقة حتى لا يذهب الطعام إلى غير مستحقيه ، وأنا لن أسمح بهذا أبدا .

وكرر ببطء بنغمة حاسمة لا تردد فيها :

- أبدا .

ردد الحاضرون بصوت جماعى مع سيادة اللواء :

- تمام معالى الباشا .

أشار سيادته بيده إلى انتهاء الاجتماع ، وقفوا لأداء التحية العسكرية فاستدرك ليقول لهم وهم وقوف :

- طبعا من حقكم بعد هذا العمل الشاق الحصول على مكافأة .

صمتوا وقد أذهلتهم المفاجأة ، "معاليه لا ينسى رجالة" . تابع معاليه :

- المكافأة لمن يعمل ليست حقا له فقط ، بل هى حافز لكل العاملين . هذا قرارى الذى أعتبره أساس العمل والإنجاز في عهدى .

تابعوا صمتهم وقد حداهم الأمل ، فتابع معاليه بصوت مفعم بالسعادة والفخر :

- لقد قررت منح كل منكم وجبتين كاملتين ، الأولى حقكم لولائكم وإخلاصكم ، والثانية منحة لكم حتى تكون حافزا لكل العاملين حتى ونحن نمر بظروف صعبة .

تواصل التصفيق الحار لدقائق ، وهمّ سيادة اللواء بأن يتكلم باسمهم تعبيرا عن الشكر لكن معاليه رفع إصبعه آمرا له بالصمت ليقول بحسم :

- سيادة اللواء ، يتم لتنفيذ فورا ٠

رفع يده بالتحية العسكرية وهو يقول :

- تمام معالى الباشا ٠

تابع معاليه :

- وانت ماشى ابعث لى الولد الصحفى ٠

من جديد رفع سيادته يده بالتحية العسكرية ، ودق الأرض بكعبيه وهو يؤدى التمام ٠

- ١٧ -

وقف بالباب يتأمل الموقع في صورته النهائية ، "هذه هى المرة الثانية التى سيلتقى فيها معه خلال يوم واحد ، وفي فترة قصيرة للغاية ، هذا فوق ما كنت تحلم به ، لقد كان أقصى أحلامك أن يكتب اسمك على رأس صفحة من صفحات الصحيفة باعتبارك رئيس تحرير الصفحة ، أن تكون يوما من بين المدعوين في مقابلته السنوية في المعرض تراه ولا يراك ، تستمع إليه مع المئات وليس مع الملايين ، تضحك مع عفويته التى لم تتدخل فيها مقصات المونتير ، أما أن تلقاه وجها لوجه ، أن تقف أمامه لتستمع إليه وحدك ويستمع إليك وحده ، أن تكتب له وتقرأ له ما تكتب ، أن تقرئه ما كتبت وأن تجعله يردد كلماتك وتضبط له إيقاع الألفاظ والجمل ، فهذا أمر تجاوز كل خيال ، وفاق كل حلم ، من المؤكد أن لقاءك الأول به قد حقق نجاحا بدليل دعوتك مرة أخرى إليه ، وأنت في عملك الأول معه كنت حريصا على ألا تخرجه عما ألفه من ألفاظ وعبارات وأفكار بحيث لا يحس إزاءك بغربة تغريه بالبحث عن بديل ، فهل يمكن الآن أن تترك بصمة شخصية تكون بمثابة قوة ربط خاصة ، تجعلك أقرب إليه من غيرك ،

تخطر بباله في لحظة فيطلبك ، إذن لأصبحت الدنيا غير الدنيا والناس غير الناس وأنت لن تكون أنت ، الأشرم الجاهل رئيس لأكبر مؤسسة وهو يعزف بأقلام غيره ليجني ثمرات الأرض ، ومخبر المطار رئيس لمؤسسة كبرى تصدر أكبر عدد من الصحف والمجلات من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ، وبطاقة منه تمنح المحظوظ بها ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ، القرب هو مفتاح الحياة والرخاء والخير والقوة . كاذب من يظن أن النيل مفتاح الحياة ، إنه بالكاد يبقي الحياة في حدها الأدنى ، يجعل الناس يعيشون جوعى يمضغ بعضهم بعضا ، يلتهم بعضهم بعضا ، الآخر منهم مجرد لقمة تزدردها ودرجة تخطو فوقها وعصى نتوكأ عليها ، أما هو فشيئ مختلف ، هو واهب الحياة طعم الحياة ومانح الوجود سر الوجود ، هو المركز الذى يمتد منه الكون والمحور الذى يدور حوله . ليس ابن الخضرة بشرا كسائر البشر ولا رجلا كباقى الرجال ، إنه روح ونظام ودولة ، هل من لمسة خاصة تفتح الطريق إلى الآفاق العليا"

بمجرد أن أدرك أن بصر معالى الباشا قد وقع عليه وهو يتقدم إليه قال ببهجة نابعة من القلب :

- هذا يوم تاريخى يا صاحب الفخامة ، سأحفره في ذاكرتى وأتحدث فيه وأحكى عنه وأكتب ، وسأظل إلى آخر لحظة من حياتى مدينا لهذا اليوم بتحقيق أقصى أحلامى ، ومنتهى آمالى ، أن أرى فخامتكم عن قرب ، وأن تتشرف أذنى بسماع صوت فخامتكم مباشرة ، وأن يتشرف لسانى بتوجيه الحديث إليكم . يا صاحب الفخامة اسمح لى أن أجدد شكرى لفخامتكم مرة ثانية لتشريفى بهذه المقابلة .

صمت قليلا ينتظر رد الفعل ، هل فتح المفتاح ، واصل :

- هل تأذن لى يا صاحب الفخامة ؟

رد فخامته دون اهتمام :

- تكلم ، بالتأكيد لابد أنك تريد شيئا ، أنا أعرفكم جيدا .

أصابته الكلمات بإحباط لكنه تماسك وتابع :

- نعم يا صاحب الفخامة ، أريد شيئا حلمت به من عشرين عاما ، منذ كنت تلميذا صغيرا .

ردد فخامته باستغراب :

- عشرين سنة ، ياه ، دا عمر .

- نعم يا صاحب الفخامة ، حلمت يومها أننى أقابل فخامتكم وأننى أتحدث معكم ، ويبقى شيئ واحد ليتحقق هذا الحلم .

تساءل فخامته بهدوء :

- إيه هو ..

رد بحرارة عاشق :

- أن تسمحوا فخامتكم لى أن أسلم عليكم ، وأن أقبلكم ، وأن أملأ عيونى منكم .

ابتسم معاليه ، وأذن له بتحقيق أمنيته ، بل تجاوز أحلامه حين ربت معاليه على ظهره بمودة وهو يقول :

- طيب ما أنت بتتكلم كويس أهه ، امال لزمته إيه الكلام المكلكع اللى بتكتبوه ده .

قال ببهجة من زغرد فيه الحلم :

- يسمونه يا صاحب الفخامة لغة العصر .

ضحك معاليه وهو يقول :

- عصر إيه ، دا حتى الشمس بتبقى لسه مولعة ، طيب ما تخلوها لغة المغرب يمكن تكون أهدأ شوية .

امتد الأمل فسيحا ، نما وازدهر ومعالى الباشا يرفع رويدا رويدا كلفة الحديث ، حتى إنه بدأ يستخدم كلماته المأثورة في وصف بعض المقربين ، الخرج ، الطرطور ، الشوال ، الزعبوط ، العبيط ، المقطف ، البغل ،

الحمار ، النعجة ، التيس ، القواد ، إلى أن سكت فجأة ثم قال مبتسما كأنمـــا يتحرج :

- والا بلاش ٠

ألح عليه :

- صاحب الفخامة ، وحياة حبى لفخامتكم تقولهـا ، سايق عليـك النبـى تقولها ٠

رد معاليه ضاحكا :

- أقول إيه ياجحش ، دا سرّ ٠

وصمت لحظات ليضيف :

- وإن كان البلد دى ماعدش فيها سرّ ٠

ونظر إلى الصحفى وانفجر ضاحكا وهو يقول :

- الخول ، أكيد إنتم عارفينه ٠

- نحمد ربنا برضه إن مفيش فيهم الحرامى ٠

ارتفعت من جديد حمى الضحك ومعاليه يقول :

- دول كلهم حرامية يا وسخ يا ابن الكلب :

تنبهت الحواس وقال مستدركا بهدوء حذر :

- الله يكون في عون فخامتكم ٠ دا عبء ثقيل جدا ٠

عقب معاليه مؤكدا :

- طبعا ، أحسن ولاد الأحبة فاكرين المسألة سهلة ٠

صمت معاليه فجأة فصمت ٠ قال معاليه بهدوء :

- في الحقيقة أنا كنت محتاج لشوية الضحك دول علشان الشـد العصبـى اللى أنا فيه ٠

عقب الصحفى بنفس الدرجة من الهدوء لكن مغلفا بحرارة :

- الله يكون في عون فخامتك ٠

تابع معاليه :

- شوف بأه ، أنا ارتحت لك وحسيت بإخلاصك فعلا ، وعاوز أعرف منـــك موقف الناس هنا علشان نقدر نحدد عملية التوزيع ٠

رد الصحفي بحذر :

- الحقيقة يا صاحب الفخامة المشكلة محتاجة لحملة إعلامية مكثفة ٠

تساءل معاليه بدهشة :

- يعنى إيه ٠

تابع الصحفي :

- الناس الوقت متوقعين إنهم حياكلوا في خلال مدة قصيرة ، ساعة مثلا أو ساعتين ، وفاهمين إن دا حقهم ٠ مهمة الحملة الإعلامية إعادة صياغـــة اتجاهات الناس بحيث إنهم أولا ما يتوقعوش الأكل ، وثانيا يعرفوا انه مـش حقهم ، بحيث إذا لم يتم توزيع أى شيئ كانوا على استعداد ، وإذا وزع أى شيئ على حد معين يبقى من قبيل رحمة فخامتك بالمحتاجين منهم ٠

تساءل معاليه باستغراب :

- حتخلى الناس يمتنعوا عن الأكل برغبتهم ، إزاى ؟ ٠

تابع الصحفى :

- نستخدم كل الإمكانيات المتوفرة الوقت بين إيدينا ٠

قاطعه معاليه بضيق :

- بلاش كلام عايم ، اتكلم دغرى ، ازاى ؟ ٠

- الموجود بين إيدينا الوقت الإذاعة الداخلية للطائرة ، حنســـتخدمها فـــي حملة إعلامية مكثفة ، أنا شفت بين الركاب بعض القيادات الدينية ، ممكـن يتكلموا عن الصبر والتحمل ومجاهده النفس والتضحية والحاجات دى ٠

قاطعه معاليه بضيق :

- دول ولاد كلب ، عاوزين أنجر فتة ٠

رد بهدوء :

- معلش يا صاحب الفخامة ، نتحملهم شوية لأنهم يقدروا يأثروا ٠

سكت معاليه كأنما يفكر ، فاستمر :

- وشفت برضه بعض اليسارين القدامى ، وبعض الفنانين ، وأظن إن من الممكن إن احنا نخليهم يشتركوا في الحملة .

قاطعه معاليه :

- ودول حتقدر تسيطر عليهم ازاى ؟

تابع بهدوء :

- حنديهم فرصة إنهم يتكلموا ، حيختلفوا مع بعض ، وكل واحد منهم حيضرب في التانى ، ودا كفاية .

من جديد قاطعه معاليه :

-كفاية ازاى ؟ دا ممكن يخلق صراع في الطيارة يضيعنا كلنا .

- حنقول من الأول إن الخلاف ممكن ، وتعدد وجهات النظر أمر طبيعى ، وكل واحد من حقه إنه يقول رأيه ، لكن مش من حقه إنه يحاول إنه يفرض رأيه لأن فرض الرأى معناه انتهاك حقوق الآخرين .

- والحكاية دى ممكن تنفع ؟

- صاحب الفخامة ، الخطة دى حتدينا وقت أطول من اللى احنا عاوزينه . طبعا حنفتح الموضوع ببيان مكتوب من فخامتك يحدد المشكلة ويبين التحدى ويطلب الدراسة ، وحيقول إن دى هى الديمقراطية وإننا ملتزمين بالوقوف عند إرادة الجماهير . وبعدين ندى فرصة لأصحاب الاتجاهات المختلفة انهم يتكلموا ، كل واحد الأول حيتكلم لوحده ، وبعدين نبدأ في عمل حوارات ومداخلات ، وبعدين ننتقل لمرحلة استطلاعات الرأى وبعدين ...

قاطعه معاليه كأنه يسخر :

- باقى إننا نعمل انتخابات .

كأن الفكرة برقت في ذهنه فواصل :

- ممكن يا صاحب الفخامة ، بعد كل الحوارات دى حندى فرصة للركاب إنهم يختاروا عشرة من المائة منهم للمشاركة في اتخاذ القرار ، وطبعا ضرورى إن كل واحد عنده رغبة في الحكاية دى لازم يتكلم ويقدم نفسه قبل التصويت ، ومن الممكن نشكل لجنة في الأول علشان تدرس يا ترى يتم انتخابهم بشكل مباشر على مستوى الطيارة ككل والا بشكل فئوى .

- فئوى ازاى ؟

- الستات مثلا لوحدهم والرجالة لوحدهم ، والستات تشمل الآنسات والا الآنسات فئة لوحدها ، والأطفال لحد سن كام ، وحيكون لهم ممثلين والا لأ ، وإذا كان لهم حيكونوا رجالة والا ستات ، قرايب لهم والا مش قرايب ، والأجانب لهم حق الترشيح والتصويت وإلا لهم حق التصويت بس والا ما لهمش خالص حق لا في الترشيح ولا في التصويت .

صمت منتظرا رد الفعل ، قال الباشا بعد لحظات :

- تعرف إن الحكاية دى ممكن تزعل ناس .

فوجئ وداخله الارتباك ، آخر شيئ يمكن أن يخطر بباله أن يغضب أحدا ، قال مؤكدا :

- صاحب الفخامة ، أنا أحاول بهذه الخطة أن أرضى جميع الأطراف .

تابع معاليه :

- اللواء مثلا ممكن يفكر إن الخطة دى حتعك عليه ، أنا عارف تفكيره كويس ، حيقول إنها حتحمله أعباء لا داعى لها في السيطرة ، وهو مش ناقص .

سارع موضحا موقفه :

- صاحب الفخامة ، سيادة اللواء لازم يكون دا موقفه ، لأنه بيفكر من خلال خبراته الأمنية ، طيب وقدراته الفعلية ممكن تحقق له السيطرة أد إيه على الطيارة ، ساعة ، اتنين ، ثلاثة ، الرحلة طويلة ومرهقة ، والناس حتيجى لحظة ومش حتستحمل ، ويحصل الانفجار مهما كانت قدرته على

الردع . لكن أنا بفكر من خلال منهج علمى ، يحقق السيطرة الفعلية الكاملة بشكل غير مباشر .

قاطعه معاليه مستوضحا :

- ازاى ؟

- منهج توظيف الوقت لتحقيق الأهداف يا صاحب الفخامة ، دا منهج مهم جدا .

- ازاى .

- عن طريق عمل مزيج بين اليأس والأمل ، اليأس لوحده قادر على أن يجعل الناس يتحركوا ، والأمل لوحده عامل ضاغط ممكن يخليهم يتحركوا ، لازم يكون فيه مزيج متوازن بين الاثنين ، لازم يكون فيه خبرة علشان يبقى فيه مقدرة إن احنا نزود كل واحد من الأثنين في لحظة محددة قادرة على أن تجهض أى تفكير في أى تحرك .

- ودا علاقته إيه بكل الهيصة اللى بتقول عليها دى .

- الهيصة دى يا صاحب الفخامة هى النار اللى بنطبخ بيها الطبخة دى .

قهقه معاليه عاليا وهو يقول :

- انت لازم جعت ، خد لك وجبة وبعدين اقعد اكتب البيان .

في الوقت الذى كان الصحفى يعد فيه البيان الافتتاحى للمناقشة الديمقراطية الموسعة كان سيادة اللواء قد أوشك على تقديم تقريره بالانتهاء من تنفيذ المهام التى اتخذت في الاجتماع الذى تشرف برياسة معالى الباشا ، فقد تسلم التمام بإنجاز مأمورية نقل الوجبات والمشروبات من العميد أركان حرب غرفة العمليات ، كما أبلغه بقرب الانتهاء من عملية إجلاء المدنيين من درجة رجال الأعمال لإحلال الوحدة العسكرية المكلفة بالتأمين محلهم . تأكد اللواء أن الأمور تسير وفق الخطة الموضوعة ، انفرجت أساريره المعقودة ، وطلب مشروبا مثلجا أخذ يرشفه ببطء منتظرا التمام النهائى .

في هذه اللحظة نشأت مشكلة لم تكن متوقعة ، فقد رفضت السيدة ضابط الاتصال مع الجانب المصرى مغادرة مقعدها في درجة رجال الأعمال ، وقد بذل المكلفون بالتنفيذ جهودا مضنية لإقناعها بترك مقعدها والانتقال إلى مقعد آخر في مقدمة الدرجة السياحية ولكنها أصرت على موقفها ، وأعلنت بوضوح قاطع أنها لن تغادر مقعدها مهما كانت الأسباب ، وأن مكانها حق لها طبقا للنظام الدولى المتعارف عليه وأنه لا يحق لأحد

مجزد طلب إنتقالها منه ، وأن هذا الطلب قد أساء إليها وبالتالى فإنها تحتفظ لنفسها بحق طلب التعويض المناسب ، ولما حاول أحد المكلفين بالتنفيذ تنبيهها إلى أن الركاب الآخرين لم يتخذوا مثل هذا الموقف المتعنت وأنهم تعاونوا بارتياح معهم صرخت فيه وهى في قمة الانفعال :

- وهل تعتبرنى مثلهم ، إنكم تستطيعون أن تفعلوا ما تشاءون في مواطنيكم ، أما نحن فليس في إمكان أحد مهما كان أن يفكر مجرد تفكير في أن يعاملنا كما تعاملونهم .

اضطر الرجل أن يقول بعد أن استفزته الكلمات :

- إنها أوامر عليا .

ازدادت حدتها عنفا وتابعت صراخها وهى ترشقه بنظرة احتقار :

- اخرس يا كلب ، أوامر عليا بالنسبة لكم وحدكم ، أما نحن فلا يستطيع أحد أن يوجه أمرا إلينا .

كاد انفعاله يحمله على أن يرتكب خطأ يؤدى إلى أزمة دولية حين بدأ يشمر عن ساعديه استعدادا لأن يحملها عنوة ويلقى بها في الدرجة السياحية لولا أن تداركه صوت اللواء في اللحظة المناسبة يقول له بهدوء :

- معلهش ، سيبها أنت ، أنا حتصرف .

ومضى اللواء بخطوات ثابتة ليجلس في مواجهتها ، تكلف ابتسامة وهو يقول لها بود مصطنع :

- سيدتى العزيزة ، أرجو أن تذكرى أننا اتفقنا على أن نتعاون .

انخفضت اشتعالة الغضب وإن كانت ما زالت تلون الصوت .

- سيدى الجنرال ، يبدو أنكم لا تفهمون جيدا معنى أن نتعاون معكم .

"يخرب بيتك ، بدأنا يا بنت الكلب " ، تابعت :

- هل لى أن أسألك سؤالا محددا .

لم تنتظر موافقته واستمرت :

- ما معنى التعاون عندكم ؟

أجاب بثقة :

- أن تساعدونا .

- في ماذا ؟

- في تحقيق الأهداف .

- أى أهداف ؟

صمت كأنما يفكر وتابعت :

- أهدافكم غير واضحة ، لماذا تنقلونى من مكانى هنا ، لا أفهم .

- هذا حقنا منذ البداية ، كان في إمكاننا أن نضعك في مكان آخر .

- في البداية نعم ، كان في إمكانكم أكثر من هذا ألا تسمحوا لى أصلا بركوب الطائرة ، لكن ما دمت قد احتللت مقعدى فلا يمكن لأحد أن يحركنى منه .

انتظرت لحظات حدقت فيها في عينيه وأضافت :

- فات الوقت يا سيدى الجنرال .

وتابعت مؤكدة :

- فات الوقت .

لمحته يفكر بأناة ، كيف أدركت ما يفكر فيه فقالت بهدوء بالغ :

- سيدى الجنرال ، أظن أن هذا الأحمق فكر في استخدام القوة .

قال اللواء :

- لا أظن .

تابعت بنفس الدرجة من الهدوء .

- تظن أو لا تظن ، سيان عندى .

تساءل متحيرا :

- كيف ؟

ردت بتؤدة وهى تضغط على الكلمات :

- إنه بالتأكيد لا يعلم أن استخدام القوة ليس في صالحه .

استمر يتساءل :

- لماذا ؟

- لأن معى هنا القوة الكافية للسيطرة على الطائرة كلها ٠

أخرجت سيجارتها فتكلف الابتسام وهو يشعلها لها ، أخذت منها نفسا عميقا وأخرجته في شكل نافورة متقطعة بينما راح يفكر "وقع المحظور وأعلن التحدى ، هل في إمكانك اتخاذ قرار ، اتخاذ قرار يقتضى معرفة القوة المضادة التى يمكن أن تساندها ، وهى تكلمت بوضوح حاسم عن قدرتها على السيطرة ، وهى تعلم بالتأكيد حجم القوة التى معنا لكننا لا نعلم شيئا عن القوة التى معها ٠ قد يكونون مجموعة الأجانب وحدهم ، وقد يكون معهم بعض من يحملون جنسيات عربية ، ومن يدرى ، يجوز أن يكون معهم بعض العملاء الآخرين ، هل بوسعك القيام بمخاطرة في ظل هذه الظروف ؟ أحمق فعلا من يعرض نفسه للمسئولية بهذه الصورة ٠ لا مفر من عرض الموضوع على معاليه ، فلتتأجل المواجهة حتى تقف على قراره" ٠

قال بصوت هادئ كأنما يعتذر :

- سيدتى العزيزة ، إننا أصدقاء ، ولا أتصور إمكان استخدام القوة بين الأصدقاء ٠

نظرت إليه باحتقار وهى تقول :

- من الطبيعى أن يعرف الأصدقاء حدودهم جيدا ٠

أشاحت بوجهها عنه ولم تلق إليه بالا وهو ينصرف ، وراحت تتشاغل بمراقبة عناصر الوحدة العسكرية التى كانت ترتدى الملابس المدنية وهى تأخذ موقعها في المقاعد الخالية ، محاولة اختبار ذاكرتها في تذكر أسمائهم ، تمتمت لنفسها : "هؤلاء الشباب انفعاليون ولا يقدرون العواقب ، هل هناك محاولة لاختطاف الطائرة ٠ في المسألة سر لابد من كشفه ، وما دام الجنرال يلزم الصمت فلابد من الاتصال بقائده مباشرة" ٠

نهضت بأناة ، وسوت ملابسها بدقة ، ومرت بيدها علـــى خصـــلات شعرها المتناثرة حول وجهها ، وأخذت طريقها بهدوء إلى حيث يجلس معاليه دون أن يعترض طريقها أحد . وحين اقتربت من مقعده تنحى سيادة اللـــواء حتى تتمكن من الدخول وهو يأخذ طريقه عائدا إلى موقعه .

فوجئت حين وقفت أمامه يقول لها برقة ذائبة :

- أهلا .

ابتسمت ترد تحيته ، تابع بلطفه المعهود :

- من المؤكد أنهم أخطأوا ، لابد من محاسبتهم .

ازدادت ابتسامتها اتساعا وقد أيقنت أنه حسم الموقف لصالحها ، فتحت فمها لتشكره فلم يتح لها فرصة واستمر :

- من فضلك يا سيدتى لا تتوسطى بشأنهم ، فأنا لا أستطيع أن أرد لك طلبا لكن هذه المرة .

قاطعته بثقة :

- صاحب السعادة ، إننى . . .

قاطعها بمودة صافية :

- سيدتى ، إن جريمتهم لا تغتفر .

- صاحب السعادة ، أرجوك أن . .

- سيدتى لقد حدثونى طويلا عن جمالك ، لكن كيف أغفلوا وصف هـــاتين الساقين الباهرتين ، إنهما شيئ رائع ، شيئ لا يصدق ، أرجوك ، لابد مـــن عقابهم مهما كانت الظروف .

فاجأتها العبارات ، إنه نموذج بارع للسياسى الذى يبدأ من الخاص ليمهد الطريق لأهدافه ، تنبهت في أعماقها قرون الاستشعار وهى تقول :

- صاحب السعادة ، أنت رجل تجيد المجاملة .

قالت بصوت مفعم بالتواضع :

- سيدتى ، مشهور عنى أننى لا أحسن المجاملة .

ابتسمت وهى تقول :

- وهذه مجاملة أخرى يا صاحب السعادة .

مضى اللقاء ممتعا لكليهما ، لم يشر أى منهما إلى مرحلة الخلاف التى وقعت ، اكتفت بأن أشارت بلطف إلى أن الصغار وحدهم هم الذين يحـاولون تعكير الصفو بين الأصدقاء ، واكتفى بأن أشار بمـــودة إلـــى أن الصداقـة الحقيقية قادرة دائما على أن تفرض وجودها . وفجأة قالت وهى تحدق فـــي عينيه :

- صاحب السعادة ، لقد لاحظت وجود تحركات مريبة على الطائرة .

تساءل معاليه بهدوء :

- أى تحركات يا سيدتى ؟

- تحركات يقوم بها عسكريون يرتدون ملابس مدنية .

اضطر معاليه أن يوجز لها المشكلة مشيرا إلى أن المسألة كلها عمل تـأمينى بحت .

انصرفت عن كلامه إلى تأمله وهو يتحدث ، برغم هدوئه الظاهر كـان يبدو عليه الإجهاد ، نظرات العينين غير ثابتة ، الجيـــوب زادت انتفاخـا ، الهالات أشد سوادا ، لون الأنف باهت بعض الشيئ ، ثقل السمع بات أكـــثر وضوحا ، فقد أصبح يضع يده على أذنه ويميل تجاه محدثه ، قدماه لم تعـودا قادرتين على تحمله ، ويبذل مجهودا كبيرا في الوقوف ، حين نهض ليســلم اضطر أن يتوكأ على قبضتيه ، في الزيارة القادمة يجب أن يأخذ وقتا كافيـا في كليفلاند ، الكوافير الخاص يجب أن يطور أدواته ويختبر أصباغه حتى لا يتساقط الشعر ، أما الماكيير فلا بد من تغييره . يجـب أن تزيـد سـاعات الرياضة الصباحية ، وعليه أن يعود نفسه على أن ينام مبكرا .

خيل إلى معاليه أنه انتهى من إقناعها حين ختم حديثـه كأنمـا يـأذن لـها بالخروج:

- "أحسن شيئ في هذا الموضوع أنه جعلنى أرى السيدة التى بهرت كل رجالى .

صمت لحظات متوقعا شكرها ردا للمجاملة ولما لم تفعل أضاف :

- وفي الحقيقة فإن عندك ما يبهر كل رجال العالم .

وأشار من جديد إلى ساقيها ، لكنها نظرت في عينيه بعمق قبل أن تسأله :

- صاحب السعادة ، من الذى اقترح أن يحتل العسكريون جوارك مباشرة .

رد وقد وشى صوته ببداية ضجر :

- قلت لك يا سيدتى ، إنها مجرد عملية تأمينية .

قالت بحسم :

- صاحب السعادة ، لقد أزلتم خطرا محتملا بخطر محقق .

صمت وفي عينيه نظرة تساؤل ، استمرت :

- هؤلاء الشبان مشبوبو العواطف ، انفعاليون ، لا يقدرون المسئولية ، ومنهم من لا يحب ثقافتنا ونمطنا في الحياة ، إنهم خطر حقيقى .

رد معاليه بهدوء وهو يبتسم :

- لقد عاشوا عندكم وتدربوا في بلادكم .

تابعت بصوت ثابت الإيقاع لكنه لا يخلو من حماس :

- قد يكون هذا سببا آخر من أسباب كراهيتهم لنا .

كأنما كان يهدئ من روعها حين عقب :

- أنا مطمئن تماما لحسن سلوكهم .

وكأنها لم تسمعه إذ أضافت :

- إن تقاليد العسكرية الوطنية عندكم معاد تماما لنا ، ولمن يتعاون معنا .

اضطر أن يقول :

- إنك تبالغين كثيرا .

استمرت كأنما لم تسمع تأكيده المتكرر :

- منذ أيام رمسيس العظيم حتى اليوم وموقف الجيش المصرى في هذه المسألة واضح وثابت ومستمر ، إنها عسكرية جامدة تحتاج إلى تغيير جوهرى ، لكن لهذا وقت آخر وأساليب أخرى أرجو أن يتسع الوقت لمعالجتها قريبا معكم شخصيا ، لأنكم الأقدر على فهم هذه الأمور .

قال لها بضجر :

- أؤكد لك يا سيدتى أنه يجب أن تطمئنى تماما ، لدينا قوات أمن جيدة في الموقع .

أخذت تشرح وقد أيقنت أن الرسالة لم تصل :

- صاحب السعادة ، أنا لا أتحدث عن قوات الأمن . فتراثها مختلف ، إنها قوات محترفة وفي خدمة النظام دائما . أنا أتحدث عن القوات الأخرى صاحبة التقاليد المعادية .

اضطر ليسكتها أن يسألها مباشرة :

- ماذا تقترحين ؟

أجابت بصرامة ووجهها يرتدى قناع التجهم :

- لابد من الاستعانة بجزء من قوتنا على الطائرة ، لتضمن على الأقل توازن القوى في الموقع ، لابد أن نحسب حسابا لكل الاحتمالات ، ولا يصح السماح لصديق عظيم مثلك أن يقع ضحية لسوء التقدير .

سألها بهدوء :

- هل هذا يطمئنك ؟

ردت بنغمة هادئة لا تخلو من حسم :

- إنه ضرورة .

ابتسم معاليه وهو يعقب متلطفا لتخفيف توترها :

- هو انت يعنى جيتى في جمل ، مزيد من التأمين لا ضرر منه ، موافق يا ست الكل .

- ١٩ -

- ما توجعش دماغى ، خلاص ٠

قالها وهو يأخذ مكانه في المقعد المجاور للممر الأيسر فور انتقاله إلى درجة رجال الأعمال تاركا لزميله المقعد المجاور للنافذة ، تابع زميله :

- لا ، أنت لسه زعلان ٠

ظل صامتا لا يرد ، فاستمر ٠

- يا أخى أنا ما فهمتش اللى أنت بتقول عليه ده ، هو أنا لو كنت فهمته كنت سبت بنت الوسخة دى ، دا أنا مش عارف لو شفتها تانى حعمل فيها إيه ٠

تشاغل بمتابعة الحركة وكأنه لا يسمع ، فاستمر :

- طب وحياة الضفادع اللى كلناها سوا في الصالحية ٠ وحياة تعابين العقيد فوطة اللى بلعهالنا نية ، وحياة الإيه ، وحياة ادى له سكة بتاعة الرائد صابونة ٠

كان وجهه يكتسى بألم بالغ وإن تظاهر صوته بالتهريج ، لما لم يسمع ردا تابع آملا وقد بدأت نبرات صوته تعكس جدا حقيقيا ٠

- طب وراس المرحوم أبوى الله استشهد في مصنع أبـو زعبـل ، طـب ورأس المرحوم فكرى .

- فكرى مين ؟

- أخوك اللى انت ورتنى صورته وانت قاعد على رجله ، اللى استشهد في الثغرة .

التفت إليه معنفا :

- أنت دايما كده ، ما بتحاولش تفكّر ، خلاص ؟ أبيض !

ارتخت الأسارير المشدودة ، وحمل الصوت نغمة بهجة تتصاعد وهو يقول :

- اشتم زى ما يعجبك بس ما يبقاش قلبك أسود .

زالت الغمة وبدأ التهريج وارتفعت الضحكات وتوالـت التعليقات ، وفجـأة قال :

- تفتكر هم نقلونا هنا ليه ؟

كان هذا هو السؤال الذى يشغله منذ جلس ، ومـن أجلـه راح يتـابع الحركة في الممر الملاصق لعله يصل إلى إجابة ، هل قالها زميله ليثبـت أن فيه رأسا يفكر أو أن لديه فعلا بعض المعلومات :

- تفتكر ليه ؟

رد بثقة عارف :

- الأكل هنا أحسن من هناك .

فاجأته الإجابة فقال ساخرا :

- تفتكر كده .

تابع من غير ذرة تردد :

- لو ما أكلناش احنا أحسن أكل إمال مين يأكل .

تابع ساخرا :

- عندك حق ، ما أنت بتفهم كويس أهه .

- أحسن منك .

ضحكا وراحا يتحدثان معا في كل شيئ ، وفجأة صمتا في لحظة واحدة ، ليقولا في نفس واحد وعيونهما معلقة بالممر الآخر :

- **إيه اللى جاب بنت الوسخة دى هنا .**

كانت كابتن المارينز تتقدم مختالة على رأس مجموعتها إلى حيث كانت تجلس ضابط الاتصال ، حيتها قبل أن تميل عليها لتسمع همسها ، ثم التفتت فالتفتت عيناها بعيونهما ، غمزت ضاحكة لهما فاربد وجهاهما ، فأخذت طريقها لتجلس على حافة الممر الآخر وخلفها مجموعتها .

ظلا صامتين كما لو كانا قد ضربا على رأسيهما فأغمى عليهما ، مفتوحى الأعين ولكنها لا ترى ، أما هى فمغمضة العينين ترى لحن شاكيرا الأخير ، بالحزام تتعلق ، الجسد اللدن الرائع يتأود ، يتماسك ، يتمايل ، يتبعثر ، يتداخل ، يتناثر ، ترتفع النظرة ولهى فتتعلق بالزهر البنى الناتئ فوق الصدر يعزف لحنا تلعقه الروح ، تنزل العينان ، تذوب الشفتان في رائحة العطر النافذ من فم الكهف المغلق المضمخ بالسحر الأزلى الأسود .

قامت وقد توهج وجهها واتجهت إلى ضابط الاتصال ، وقالت بنفاد صبر :

- **هل تسمحين ؟**

ردت عليها ببرود :

- **قلت لك إن الظروف غير مناسبة الآن .**

قاطعتها :

- **على العكس تماما ، أنا أرى أنها مناسبة جدا .**

أشارت ضابط الاتصال برأسها إلى العسكريين على الجانب الآخر من الممر الآخر قائلة :

- **سيكون الموقف حرجا بالنسبة لك .**

عقبت كابتن المارينز :

- **دعك منهم إنهم يتظاهرون ، مجرد نفاق اجتماعى سخيف .**

ولما وجدتها صامتة تشجعت وأضافت :

- الطفلة لذيذة جدا • لم أجرب هذا النوع من قبل • لقد أصابتنى بـــهوس حقيقى •

حاولت إقناعها :

- عندما نصل ستكون أمامك فرص كثيرة من هذا النوع ، لا تقلقى •

تابعت كأنها لم تسمعها :

- من فضلك • دعينى أحاول •

سكتت من جديد فقالت مؤكدة !

- من فضلك لن تكون أكثر من عمل استكشاف محدود •

قالت ضابطة الاتصال بحسم :

- أجليها حتى ننتهى من الطعام •

وحين قالت كالمستعطفة :

- ولماذا لا تأتى لنأكل معا •

ردت عليها وهى تشير إليها بالعودة إلى مكانها :

- غير ممكن مطلقا • هذه مسألة أخرى لا تقبل المناقشة •

ولم يتأخر الطعام طويلا ، فبعد قليل تم عزل الدرجة الســـياحية عــن غيرها تماما ، وأخذ بعض أفراد الطاقم يخرجـــون الطعـــام مـــن الموقـــع ويوزعونه على عناصر التأمين المتمركزين في درجة رجـــال الأعمـــال • شرعوا يتناولون طعامهم صامتين ، نظر أحد العسكريين على الجانب الآخر من الممر الآخـــر وغمز لزميله قائلا :

- مش قلت لك ، أظن أحسن من كده مفيش •

لكن ضابطة الاتصال التى كانت تتفحص الوجبات بعينيها نهضت دون أن تأكل شيئا تاركة طعامها على المقعد الخالى إلى جوارها واتجـــهت إلـــى الموقع • وما أن دخلت حتى علت الابتسامة وجهها بعـــــد أن رأت معـــالى الباشا يتناول طعامه الخاص ، وما كاد يفطن إلى اقترابها حتى بادلها الابتسام وهو يقول مرحبا بلطفه المعروف :

- لا أستطيع دعوتك إلى تناول طعامى ، بالتأكيد لن يعجبك ٠

ردت ضاحكة :

- شكرا يا صاحب السعادة ، في رأيى أنه طعام مفيد جدا ٠

هل كان يشكو أو يتبسط حين قال :

- إنها أوامر الأطباء وتحكماتهم الغريبة ٠

صمتت فأدرك أنها لا تريد الاستمرار في الحديث ٠ ربما كانت لديها مشكلة لا يعرفها ٠ وضع السكين التى قطع بها قطعة اللحم الصغيرة وأمسك بالشوكة في يده لم يرفعها إلى فمه ونظر إليها مستفسرا فقالت :

- أنا آسفة جدا يا صاحب السعادة ، لكنها مسألة عاجلة ٠

انتظر وقد داخله ضيق ، فأضافت :

- الطعام المقدم لوحدتنا غير مناسب ٠

تساءل بامتعاض :

- لماذا ؟

ردت بثقة :

- كميته غير كافية ونوعيته رديئة ٠

تماسك حتى لاينفجر غضبا ، إنها بالتأكيد تتجاهل الظروف مع أنها تعرفها ٠

- سيدتى إنه نفس الطعام الذى نقدمه لرجالنا ٠

- لهذا أشكو منه يا صاحب السعادة ٠

نظر إليها في دهشة فواصلت :

- إنكم تعلمون يا صاحب السعادة أن رجالكم قادرون على تحمل الجوع وقادرون على أكل أى شيئ ، أما نحن فمستعدون أن نحارب في كل الجبهات من أجل مستوى طعامنا ، إننا مستعدون لأن نسقط الرئيس إذا لم يوفر لنا قطعة الزبد الصغيرة التى ندهن بها قطعة التوست الساخن في الصباح ٠

سكتت قليلا ثم قالت :

- شيئ آخر يا صاحب السعادة ، من المؤكد أن الطعام الذى قدم لرجالكم هنا أفضل مما يتناولونه في بيوتهم ، والمسألة بالنسبة لنا تختلف .

قاطعها ربما ليكمل طعامه في موعده :

- أعرف أن النقاش معك غير مجد ، ماذا تقترحين ؟

قالت وابتسامتها تشع من عينيها :

- أنا على يقين من أننا قادرون على التفاهم دائما .

وسكتت لحظة لتقول :

- وجبة إضافية يا صاحب السعادة .

همّ أن يصرخ فيها لولا أن تماسك لكن صوته كان مفعما بالحدة :

- تعرفين أن ذلك يمكن أن يخلق مشكلة مع رجالنا .

ردت وكأنها تهوّن :

- لا مشكلة هناك يا صاحب السعادة ، يمكن لأفراد وحدتنا تناول الوجبة الإضافية في مكان آخر حتى لا تحدث الحساسية التى أشرتم إليها .

- أين ؟

قالت وهى تنهض منهية النقاش :

- هنا يا صاحب السعادة ، وبعد ذلك يعودون إلى مواقع تمركزهم .

ولم يفتها أن تلتفت إليه وهى على بعد خطوتين لتقول :

- مرة أخرى أكرر شكرى لكم يا صاحب السعادة . إنكم نموذج رائع للتعاون المخلص .

وصلت إلى مكانها والابتسامة المشعة تتألق على وجهها ، عندما وصلت لم تبادر بالجلوس كعادتها ، ولكنها وقفت وظهرها إلى الموقع لتواجه عناصر التأمين على جانبى الممرين ، وراح بصرها يتجول بينهم ، العدد متقارب لكن من المؤكد أن القوة غير متكافئة ، فعناصرها يحتفظون بأسلحتهم الشخصية طبقاً للأوامر أما الآخرون فمجردون منها حتى قبل أن

يغادروا بلادهم للتدريب ، النتيجة محسومة لو حدث أى صـــراع ، لكــن لا يجب أن يحدث أى صراع مهما كانت الظروف .

أشارت برأسها إلى كابتن المارينز فأقبلت عليها وقالت لها بعجلة :

- هل آن الأوان .

ردت ضابط الاتصال بحسم :

- ليس الآن ، هناك ما هو أهم .

فتحت الكابتن فمها لتتكلم لكنها توقفت بإشارة من إصبعها ، تابعت :

- ستدخلون الآن لتناول وجبة إضافية خاصة .

قالت الكابتن معترضة :

- لقد أكلت بما فيه الكفاية .

ردت عليها بصوت آمر :

- ليس الهدف أن تسدى جوعك ، الهدف أن يتعلموا أنه لا مجال مطلقا لأى مساواة بيننا وبينهم ، هذه مسألة مبدأ .

قالت الكابتن محتجة :

- لن أستطيع تناول أى طعام آخر ، لقد امتلأت تماما .

ردت ضابطة الاتصال برقة :

- ليس مهما أن تأكلى ، يمكنك أن تفسدى الوجبة بحيث لا تصلح لغيرك .

حل الصمت فترة قصيرة قالت بعدها ضابط الاتصال وهـــى تضغـط علــى الكلمات :

- بعد الانتهاء من الطعام يجب أن يتخلف بعضكم في الداخـــل ، ويحتلـوا أماكن مناسبة للسيطرة الكاملة . وحين يعود البـــاقون يجـب أن يقومـوا بعملية انتشار تمكنهم من شل أى حركة قد يفكر فيها الآخرون .

امتعضت كابتن المارينز دون أن تتفوه بحرف ، هل لاحظت ضـــابط الاتصال فأرادت أن تنبهها :

- لا تنسى أن عليك تنفيذ الأوامر في أى مكان حتى ولو كنت في إجــازة .
هذا هو قسمك .

ظلت الكابتن صامتة فتمتمت ضابط الاتصال كأنما تخاطب نفسها :

- إنه دورنا ، أن نحمى أصدقاءنا الأغبياء الذين لا يدركون مدى ما يحيــط بهم من أخطار .

- ٢٠ -

- "أيها السادة تتشرف الوحدة الإعلامية بالطائرة بتقديم التحية المخلصة والحارة إليكم جميعا ، في افتتاح تجربتها الرائدة والفريدة ، التى ليس لها مثيل حتى هذه اللحظة في العالم كله ، وهى تجربة إجراء حوار حر وبناء ومستمر ، حوار ديمقراطى حقيقى ، حول أهم القضايا التى يمكن أن تشغل بالنا في هذه اللحظة ، وهى لحسن الحظ نفس القضايا التى تشغل بال جميع القوى والتكتلات السياسية والاقتصادية ، وأهمها وعلى رأسها قضية الطعام ، أو قضية عدم وفرة الطعام ، أو قضية الجوع ، إنها جميعا متلازمة تلازما حتميا ، فقد يكون الطعام متوافرا للبعض بكميات كافية في نفس الوقت الذى لا يتوافر بقدر كاف بالنسبة لآخرين ، وفي نفس الوقت يمكن أن يجوع قسم ثالث بحيث لا يجد أى طعام . هذا هو التجسيد الحى للمشكلة ، ومن المحتم علينا أن نقوم بدراستها من خلال هذا التجسيد لرؤية جوانبها السلبية والإيجابية ، إنها التجربة العملية للنظر في المشكلات ومعاناة حلها" .

صمت المذيع قليلا ثم قال بصوت شديد الفخامـــة عمقتـــه وضخمتـــه الأكوليزر ، حتى إن السيدات اللائي كن يحملن أطفالا أهملن أطفالهن وقـــد أحسسن بالأهمية :

– ويشرفنا أيها السادة أن نفتتح هذا الحوار التاريخى التجريبـــى ، ببيـــان تاريخى عملى ، يوجهه صاحب الفخامة الرأس الأكبر القيم على أمورنـــا ، الذى يشرفنا وجوده الآن بيننا ، ومن ثم فإنه يتكلم مـــن واقـــع مسئولية فخامته التاريخية ، ورؤيته النافذة ، وبصيرته التى لاتخطئ أبدا ، وبـــهذا يتأكد من جديد التواصل المستمر والدائم بين فخامته وجماهيره التى منحته حبها وتأييدها وولاءها ، ومعايشته لقضاياها ، ومشاركته الإيجابية لنمـــط حياتها ، وهى التى كان لها في الماضى ، وما زال لها حتى الآن ، وســيظل لها في المستقبل ، الفضل الأكبر فيما وصلنا إليه من اســـتقرار وازدهـــار وتقدم ، حتى باتت جماهير العالم تحسدنا على قيادة فخامته لنا .

توقف لحظات ثم قال بصوت فخم :

– سيداتى وسادتى ، صاحب الفخامه الرأس الأكبر .

وبدأ صوت معالى الباشا هادئا ، واضحا ، يحنو في بعـــض الكلمـــات حتى كأنه والد ينصـــح أولاده ، ويشتد في بعـــض الكلمات حتى كأنه ســيف يقطع . ولولا بعض اللحظات التى عكس فيها الصوت ضجرا غير متوقع – ربما لتكرار تسجيلها أكثر من مرة – لكان نموذجا حقيقيا لبيان من البيانـــات التاريخية التى تلقى في مجلس الأمة أو مجلس الشعب أو مجلس الشـــورى أو المؤتمر الثورى العام أو الجمعية التأسيسية ، وليس مجرد بيان في مشـــكلة عرضية .

وقد أكد البيان عددا من الحقائق الأساسية لتكون مدخلا للمناقشة ، أولها أنه يضع الحقائق كاملة أمام الجماهير لإيمانه بها ، ويقينه بأنها قادرة علـــى أن تتحمل مسئوليتها معه ، وإلى جواره ، وأن هذه اللحظة لحظة يتجه فيـــها نظره إلى الجميع ليرى مدى تضحياتهم ، ويتأكد من صدق ولائهم . والثانية

أنه ملتزم بالحوار الديمقراطى مهما كانت النتائج والصعوبات ، لقـد حـذره البعض من أن الظروف لا تسمح بإجراء مثل هذا الحوار ، وأن العنـاصر المعادية يمكن أن تستغله في إثارة الفوضى ، لكنه رفض هذه التحذيرات وهو مستعد لهذه المخاطرة ، لكنه يحذر في الوقت نفسه هذه العنـاصر مـن أى محاولة لاستغلال الموقف ، وعليها أن تعرف أنه لن يسمح مطلقا بالمسـاس بالاستقرار ، وهو على استعداد لاستخدام كافة صلاحياته القانونية في تعامله معها ، بل إنه من أجل صالح الطائرة مستعد لأن يمضى إلى أبعد من ذلك ، مستعد لتجاوز جميع القوانين والضرب بيد من حديد لتحقيق مصلحة الركاب، وفي هذه النقطة لعلع صوته وهو يقول : "لا مكان لفوضوى أو انتـهازى أو مخرب معنا ، هذا قرارى الذى لارجعة فيه" . والثالثة أنـه ليـس مسـتعدا للتمييز بين الركاب ، ولا لإغضاء الطرف عن الامتيازات الخاصة ، ويحذر الجميع دون استثناء بما في ذلك المقربون بأن أى محاولة من هـذا النـوع ستقابل بحسم فورى ودون تردد . وارتفع صوته مؤكداً : "على الركـاب أن يطمئنوا جميعا إلى أن المصلحة العامة في يد أمينة ، وأنه شخصيا مسـئول عنها" .

قوبل البيان كما توقع كاتبه بصمت ، إنه بيـان غامض ، يقـول ولا يقول ، يتكلم عن مشكلة دون أن يحدد أبعادها ، يتحدث عن حـوار يحميـه السوط ، وحرية موهوبة ، وديمقراطية تتسق مع التقاليد ، تماما كما توقـع عند كتابته ، لابد أن يفكروا قبل أن يشاركوا ، إنه حساب الأرباح والخسائر مهما كان ما يتشدقون به من كلمات . فليمنحهم فرصـة للتفكـير ويحـدث تعديلا صغيرا في البرنامج المعد ويبدأ في استطلاع الآراء .

تمتمت الإذاعية التليفزيونية اللامعة لنفسها وهو تسمع :

- "يا لهوى ، الواد عملها بجد وبيجرب ، يخرب بيتك ، طيب مش كنت تأخد رأيى الأول تبدأ بمين ، وأنا كنت أرسيك ع اللى فيها ، نـهارك أزرق ، أول ما تشطح تنطح . معالى الباشا على طول ، حتة واحدة ، طب أنت عـارف

هوليه كل شوية بيروح على زيورخ ، وقعتك سودة انت حتطلع من هنا على جهنم حدف ، جهنم مين ، دا هو بيقولها باستمرار ، اللى حيفتح بقه ححطه جوه عين الشمس - يالهوى ، وكنت عاوزنى معاك ، طب دانا مستحملش خمس دقائق في الضل يبقى جوه الشمس حعمل إيه ، لا ياروح أمك ، أنا معرفكش" .

هبط عليها كالقضاء المستعجل وسألها عن رأيها في البيان ، قالت :

- والنبى طول عمره يقول كلام حلو قوى ، وسيدى المرسى كلامه على قلبى زى العسل ، أنت فاكر إيه ، دى الرجالة اللى بصحيح ، أيوه ، أعظم راجل في البلد ، لا بلد إيه ، أعظم راجل في الدنيا كلها .

فوجئ المستمعون للحوار بها تضيف :

- الله يخرب بيتك ، بأه بتاخدنى على خوانه ، عاوز تودينى جوه عين الشمس ياوسخ يا واطى .

هل كان مصادفة أن المايك بعد أن قالت كلماتها الأولى لم يغلق .

مال على جاره بعد أن أيقظه صوت الإذاعة الداخلية وتساءل بصوت يجمع بين السخرية والغضب :

- حوار إيه وديمقراطية إيه ، احنا ناقصين الهجص دا في الطيارة كمان .

رد جاره بهدوء :

- لاتتسرع جزاك الله خيرا ، من المحتمل أنهم يواجهون مشكلة ويريدون شغل الناس ، لو بدءوا يتكلمون عن ضرورة مشاركة كل القوى والتيارات يبقى نحن المقصودون ، علينا من الآن أن نرتب موقفنا .

تابع زميله كأنما لم يسمعه :

- أظن أن المسألة قد تكون ثمرة المؤتمر ، الجماعة لازم وروهم العين الحمراء .

- مش بعيد ، بس خلينا نفكر لو دعينا للمشاركة في الموضوع حنقول إيه .

وطب عليهما ومعه المايك . سمى أولهما الله وأخذ يتحدث بصوت متشنج :

- أحب أن أؤكد أولا أننا نؤمن بالحوار ، والأساس العلمى عندنا الذى سبق كل الديمقراطيات الغربية قوله تعالى : "وشاورهم في الأمر" ، ونحن دعاة هداية وإصلاح ، ومن واجب السلطة أن تسمح لنا بأن نقوم بواجبنا ، وسر الأزمة في كل الأمور واحد لا يتغير ، لقد ابتعدنا عن حكم الله ، ولا مناص من العودة إليه .

وسكت لحظات ليضيف .

- يا أخى الكريم ، الإسلام هو الحل .

قال زميله بعد أن سمى الله وأثنى عليه وحمده بما هو أهله :

- سأبدأ من حيث انتهى أخى ، الذى خلقنا وسوانا يعرف احتياجاتنا ووضع العلاج الناجع لكل مشاكلنا ، في كل مكان وزمان نستطيع أن نجد هذا العلاج فكيف نتركه ؟ أنا أعجب لقوم لديهم نور الهداية الربانية ويصرون على أن يعيشوا في ظلمات الجاهلية .

وصمت برهة ثم تابع :

- المشكلة التى تعرضونها للنقاش الآن هى مشكلة الجوع ، وهذه قد وضع رب العباد لها الحل الجذرى منذ أكثر من أربعة عشر قرنا ، هذا الحل يتمثل في الزكاة ، فلو أن كل واحد منا قام بإخراج الزكاة ما بقى جائع في المجتمع ، هل تعلم يا أخى أن عمر بن عبد العزيز الخليفة الراشد الخامس حينما التزم الناس بإخراج الزكاة كان يضع الطعام حتى للوحوش على رءوس الجبال .

سكت من جديد ليقول بصوت عميق متهدج :

- قلبى على مجتمعنا ، نحن كمن يرى النور ويصر أن يعيش في الظلمات ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

قوبلت الكلمة بتصفيق مدو ، مال عليه زميله مهنئا :

- جزاك الله خيرا ، أجدت وأحسنت ، لافض فوك .

"الرائحة العفنة تتجدد ، هل هو تمهيد جديد لردة جديدة ، الكلمات حبلى بمواقف عسف ، تذكرك بالليالى السود في معتقل القلعة التى كـــان يصفـــها الرفاق ، يملئون الآذان بالأحلام والعيون بالسراب ، يطعمون الجوعى وعودا بطعام لن يأتى ، يجعلون الأكاذيب ألوية مرفوعة ، راشدهم هذا لـــم يحكــم سوى سنتين ووجه فيهما بتحالف الرجعيين والفاسدين حتى من قرابتـــه ، أى زكاة هذه التى ملأت خزائنه والقوى المعادية تعمل لإسقاطه حتى تمكنت مـن اغتياله" .

أمسك بالمايك وقال له :

- أظن أن رأى سيادتكم مختلف .

- أولا من الطبيعى أن يكون في أى مجتمع خلاف ، فـــالخلاف ظاهـــرة إنسانية ، بل أكثر من هذا ظاهرة طبيعية ، واختلافى مع الإخوة في الـــرأى لا يعنى أننى ضد إبدائهم آراءهم . لكن أرجو أن يتقبلوا خلافى معهم كمـــا أتقبل خلافهم معى ، لأننا نريد أن نقيم حوارا حقيقيا ، وليس حـــوارا زائفا لا يسمح إلا للصدى بالوجود .

- ثانيا .

- ثانيا القضية أعقد بكثير مما قيل فيها ، علينا أن ننظر إلى إنتاج الطعـــام على المستوى العالمى ، وأن ننظر أيضا في اســـتهلاكه علـــى المســـتوى العالمى. على المستوى العالمى إنتاج الطعام يكفى حاجة البشـــر جميعـــا ، المشكلة في توزيع هذا الانتاج . هل تعلم أن بعض الحكومات تغرق كميات هائلة من الطعام في المحيطات حتى تحتفظ بمعدلات ثابتة لسعر الإنتـــاج . إنها الرأسمالية الشرهة المعادية للإنسانية .

وصمت قليلا قبل أن يقول :

- آن لنا أن نخاطب العقل ، حرام أن نضيع كل هذه السنين غـــي اجـــترار الأحلام .

انفجر أحدا الشيخين :

- خسئت أيها الكاذب ٠

والتفت إلى الركاب وصاح :

- هؤلاء الشيوعيون الكفرة هم أس البلاء وبيت الداء ٠

وخرج من مقعده مهددا فأمسك به زميله مهدئا قائلا :

- ليس هذا وقته يا أخي ، ليس هذا وقته ٠ اهدأ واستعذ بالله ٠

حاول المذيع أن يتجاوز الموقف ، رأى رجلا جالسا وقد وضع جهاز كمبيوتر على ركبتيه فتوجه إليه وسأله ٠

- واضح أن سيادتك رجل علم ، تحب سيادتك تقول رأيك في المشكلة ؟

التفت إليه مستطلعا ثم قال بهدوء :

- أى مشكلة ؟

- المشكلة التى نتحدث عنها ٠

رد وهو يعود إلى جهازه :

- آسف ما خدتش بالى ، ممكن تقولها ثانى ٠

اختطف الجالس إلى جواره المايك وقال :

- أنا مدير مركز البحوث ، وفي الحقيقة هذه المشكلة شغلتنا طويلا في المركز ، وأحب أقول تجربتنا فيها والنتائج اللى توصلنا لها ٠

سأله المذيع :

- انتم درستم المشكلة دى في المركز ؟

- شوف بأه ، المركز دا بيقوم بدور خطير جدا في حل المشكلات اللى بتواجه البلد ٠ وله أبحاث ودراسات متقدمة للغاية ، واحنا راجعين الوقت من مؤتمر كانوا بياخدوا خبرتنا فيه عشان يعمموها على المستوى العالمى ٠

- دا شيئ عظيم جدا ومشرف ٠

- طبعا ، علماء البلد دى ما بيلعبوش ، دول بيواصلوا الليل بالنهار عشان يقوموا بدورهم القومى ٠

- طيب بالنسبة للمشكلة دى عملتوا فيها إيه .

- شوف بأه ، درسنا المشكلة بشكل مكثف للغاية ، اجتمعنا ووضعنا الخطط العلمية لحلها في مدى لا تتجاوز خمس سنوات بناء على توجيهات السيد الرئيس .

- ازاى ؟

- شوف بأه ، احنا حطينا الهدف اللى حددته التوجيهات قدام عنينا ، ازاى الناس تاكل كويس ، يعنى بدل ما ياكلوا فول ياكلوا فراخ ، وبحثنا ، ودرسنا ، ووصلنا والحمد لله .

- وصلتم لإيه .

- شوف بأه ، تعرف إن البلد بتفقد سنويا أربعة وعشرين وثلاثة وسبعين من الماية في الماية من إنتاج الدواجن ، يعنى حوالى ربع كمية الدواجن اللى البلد بتنتجها . شوف بأه لما تحل المشكلة دى البلد حتكسب أد إيه .

- وعالجتوها ازاى ؟

- شوف بأه ، احنا لقينا إن إسهال الكتاكيت هو العامل الأكبر في الخسارة دى ، الكتاكيت من عمر يوم إلى عمر أسبوعين ممكن تصاب بالإسهال . طيب نعمل إيه ، شوف بأه ، الباحثين والخبراء والأساتذة اجتمعوا ، وبحثوا ، وعملوا دراسات ميدانية ، وتحاليل ، وجدنا إن اللقاحات اللى بتستعمل فقدت فاعليتها لأن نسبة نجاحها لا يتجاوز من خمسة إلى سبعة في المائة من الحالات المصابة ، قلنا لازم نعمل لقاح جديد .

- وعملتوه ؟

- شوف بأه ، الدراسات جارية ، والبحوث مستمرة ، وإن شاء الله في خلال مدة لا تتجاوز سنتين حتكون وصلنا .

- إمال الخمس سنين اللى قلتها في الأول بتاع إيه ؟

- شوف بأه ، السؤال دا كويس جدا ، اختراع اللقاح مش هو كل حاجة .

قاطعه بضجر :

- فيه إيه تانى ؟

- شوف بأه ، أى اختراع محتاج لخط إنتاج ، يعنى عاوزين معمل إنتاج لقاح ، ودا ممكن يتم بناؤه في خلال مدة ثلاث سنوات . ومش حيتكلف كثير .

- أد إيه يعنى ؟

- شوف بأه ، إذا جبناه من اليابان حيكون في حدود تسعة مليون ، وإذا جبناه من ألمانيا حيكود في حدود اتناشر مليون ، لكن إذا جبناه من أمريكا حيكون في حدود اثنين وعشرين مليون .

- جنيه ؟

- شوف بأه ، جنيه إيه ، هو فيه حد بيشتغل بالجنيه الوقت ، بالدولار طبعا .

- ودول مستوى إنتاجهم واحد ؟

- شوف بأه تقدر تقول متقارب ، مفيش فرق كبير .

- طيب ما نجيبه بأه من اليابان .

- شوف بأه ، الإجراءات بتقول لازم نعمل مناقصة عالمية ، وحنعملها ، لكن من الوقت بقول الأمريكانى أحسن .

- ليه ؟

- شوف بأه ، الأمريكان حيدونا معونة تعادل خمسين في الماية من السعر ، في حين إن الألمان واليابانيين مش ناديين يدونا أكثر من عشرة إلى خمستاشر في المائة . أظن دا واضح .

- طبعا ، واضح جدا .

- شوف بأه ، يجب إن احنا ندى الفضل لصاحبه ، والحقيقة إن كل دا بفضل توجيهات السيد الرئيس .

توقف المذيع لدقائق يفتش بعينيه ، إلى أن رآه ، تقدم إليه وهو يقول :

- بالتأكيد الكلام العلمى صعب وثقيل ، وحنخففه بالكلمة الحلوة لصاحب كلمات أنجح غنوة ٠

كان قد وصل إليه فوقف أمامه وقال :

- تسمح لى أسألك رأيك إيه في المشكلة ؟

رد بعفويته الناجحة :

- أنا ما حبش المشاكل ، مشاكل إيه لاسمح الله ٠

وسكت لحظات كأنما يفكر ، وتابع :

- شوف بأه ٠

ضحك الركاب فتشجع :

- ما تزعلش يا دكتور ، أنا مش قصدى ٠

استمر الركاب في الضحك فواصل :

- أنا مليش في الكلام المجعلص ، أنا بتاع الكلمة الحلوة والقعدة الحلوة واللقمة الحلوة ، أنا وأعوذ بالله من كلمة أنا ، أنا اللى كسبت المليون وطلعت البريمو وعديت ، وحقول لكم الكلام العسل اللى وصلت به ونطيت ٠٠ تسمعوا ٠

ردت أصوات كثيرة :

- نسمع ٠

وقف وقال مبتهجا :

- لا ، تقولوها معاى ، ياللا مع بعض :

شبكنى بأستك حطه في وسطه وكل شوية يلسوعنى

قال يعنى كده بيلوعنى ويولعنى ٠

لسوع لسوع قد ما تقدر بس اسمعنى ٠

خلى السنّة جوة الرنّة وشجعنى ٠

خلّى الخضة تدوب في الصدّة وسمعنى ٠

خلّى اللحمة حتة فحمة وضيعنى ٠

وانا وحياتى لا قول لك إيه يعنى .

لسوع لسوع وقد ما تقدر لوعنى .

كانت الأصوات تردد معه الكلمات موقعة على اللحن الشائع ، وقفت امرأة في منتصف الممر ترقص على الإيقاع المطرب ، وصرخت أخرى من الإعجاب ، وصاح المذيع معقبا وقد بهرته المشاركة شبه الجماعية :

- هو دا الفن . كلنا نحيى فنان الشعب الأول .

وارتفعت أصوات التصفيق الحاد المتواصل ، فقام لينحنى شاكرا أكثر من مرة حتى تعب وسطه من الانحناء المتكرر وتعبت الأكف من التصفيق . قال المذيع وهو يتحرك بالميكروفون :

- بعد هذه اللحظات الممتعة نبدأ نستطلع رأى الجماهير ، رأى حضرتك إيه يا مدام .

- والنبى ياخوية مانا عارفة حاجة ، أنا مش فاهمة ليه حطوا الملوخية على أم الخير ، بقى الكتاكيت بتسهل وعاوز اسم الله عليه مش عارف كام عشان يخليها تبطل إسهال ، اسم الله على عقلك ، طب ما تحطوا الفلوس دى في حاجة تعالجوا بها إسهال العيال ، مش حيبقى أحسن .

- آه والنبى يحطوها في مستشفى يعالجوا فيها الحالات اللى زيى ، دانا في السن دى ودايخ السبع دوخات وبعت اللى وراى واللى قدامى عشان اقدر أعمل عملية زرع كبد وبعدين ما عملتهاش ، ليه ، قالوا غليت الكبد ولازم تدفع ، طب ادفع منين وانتم اللى قلتم تعال باللى معاك .

- واللا يحطوها ياخويا في مساكن للناس ، للخلق الغلابة ، بدل ما بيموتوا وهم في بيوت رطبة لامية ولا هواء ولا نور ، وييجى المحروس يقول إيه خلونا نعالج إسهال الكتاكيت ، كتاكيت إيه ما إن شاء الله تاخدها الفرة .

- شوف يا أخى ، البلد دى منيلة بستين نيلة ، قل لى في الأول ، حد من المسئولين حيسمع ؟

- أبدا ، احنا بندردش .

قال جاره :

- بقول لك إيه ، خد بالك دا حيخليك تطب ، ولما ترجع مش حيدوك فرصة تشـــوف عيالك اللى بقى لك ثلاث سنين ما شفتهمش ، من المطار عــدل ، وانت فاهم .

- يا ليلة غبرة ، أنت بتضحك على ، لا ماتسينيس وتمشى ، ادينى فرصـــة أقول بقين حلوين بعد البق الحامض اللى عكيت فيه الله يخليك .

- ٢١ -

سأله جاره وقد استبد به الحماس :

- تيجى نشارك في الاستطلاع .

قال بهدوء وهو يعود إلى أوراقه :

- مش فاضى ، أصل الموضوع مهم ، اشترك انت .

وتابع قراءته في كتابه الأثير : "عجائب المخلوقات وغرائب الكائنات" .

وكان مما يختبر به الخاقان الأكبر إخلاص رجاله ما كان يسمى باختبار الترقى ، وهو ذو درجات سبع ، ويتم الانتقال فيه من الأولى إلى ما يليها مما هو أسفل منها ، ويلتحق الجدد الذين يختارهم الخاقان لخدمته عند أول عهدهم بالدرجة الأولى ، وكلما ازداد الواحد منهم جدا في خدمة مولاه وتقربا إليه انتقل إلى الدرجة السفلى منها ، فإذا بلغ السابعة من الدرك الأسفل فقد بلغ الغاية ، ووصل إلى النهاية ، وحاز قصب السبق ، وصار من أهل الحظوة .

قال بعض المحققين : الحظوة بالحاء المهملة والظاء المعجمة ، وقد التبست على بعض صغار التلاميذ فكان يقرؤها بالخاء المعجمة والطاء

المهملة وذاك شيئ آخر مختلف عما نحن فيه ، نذكره إن شـــاء الله فـــي موضعه من كتابنا المسالك في دروب المهالك .

قلت : وهذا مما لا يخفى على أحد فكيف يخفى على بعض أهل العلم ، لكنها إرادة لله سبحانه في طمس بعض البصائر . فإنها لا تعمى الأبصار ولكـــن تعمى القلوب التى في الصدور ، أعاذنا الله من ذلك بمنه ولطفه .

قال ابن التاريخى : ولقد جددت في البحث عن هـــذه الدرجـــات ، وجبـــت أقاصى البلاد وسألت أهل العلم ، وما تركت واحدا ممن يهتمون بهذا الأمـــر إلا قصدت إليه ، حتى أرهقتى الطلب ، إلى أن أذن الله وسمعت وأنا في قفط وهى قرية صغيرة من قرى المحروسة ، أن كتبيا في دار السلام لديه الكثير الكثير من تراث الأوائل ، فحزمت أمرى وسرت إليه ، لا ألوى على شـــيئ حتى أراه .

قال : وقد رأيت في رحلاتى في طلب العلـــم مـــا لوقلتـــه لا تـــهمت بالجنـــون، ولكن من يشتغلون بالطلب يصدقون ، فهم يعقلـــون ويعرفـــون ويـــرون . ولكن ما رأيته في رحلتى هذه قد بلغ الغايـــة ، وأوفـــى علـــى النهاية ، وشاء الله فيها أن أطلع على ما لم يطلع عليه أحد ، وذلـــك أنـــى سلكت طرقا غير مطروقة ، ودروبا غير معروفة ، وفيافى غير مألوفـــة ، وبلدانا ما زالت كما خلقها الله لم تدخلها يد التغير ، تشـــاهدها فتطـــرب ، وترى ناسها فتعجب ، فعليك حفظك الله ألا تبادر بالتكذيب ، فعسى أن تجـــد شيئا منها عن قريب من قريب .

قال : وكان مما رأيته في رحلتى هـــذه جبـــال عاليـــات ، ورواســـى شامخات ، تراها من بعيد ، فكأنها جد قريبة ، تقترب منها فتملؤك خوفـــا ، وتحدث لك رهبة ورعبا ، تتلفت خشية المنية في كل خطوة ، فالغيلة مع كل نظرة ، فإذا وطئها الواطئون من غير ملة أهلها وجدوها دخانا ، وصـــارت لهم أمنا وأمانا ، والمخلـــوقات فيها لا تحصى عددا ، ولاتنفد بـــها قـــوة ، ولكنها مخلوقات غريبة ، وكائنات عجيبة ، تزيد المؤمن إيمانـــا ، وتحيـــل

المتردد في قدرة الخالق - وأعوذ بالله من ذلك - موقتا ، وتؤكد صدق الشاعر :

وفي كل شيئ له آية   تدل على أنه الواحد

قال : ومن عجائب ما رأيته في هذه الرحلة أننى شاهدت فيها كائنا جسمه جسم فأر ، ورأسه رأس هر ، وأقدامه أقدام أرنب ، والصوت يخرج من استه مغموسا بدم ·

قال : ومن مخلوقاته العجيبة في هذه الديار صرصار في حجم البرغوث ، تسمع الآذان له أزيزا لكن العيون لا تراه · يرى بأربعة عيون ، اثنان منها قرب رأسه ، والأخريان بديل أنفه ، يقولون إنه ثمرة برغوت ركب فارة ، والله القادر على كل شيئ ·

قال ابن التاريخى : وفيما يقولونه نظر ، لأن البرغوث إذا ركب فارة أنتج برغوثا أو فارة ، فالراجح عندى أن يكون البرغوث قد ركب صرصارة لا فارة فاستولدها البرغوتى ·

قال المحققون : وفيما رجحه ابن التاريخى نظر ، لأن الصرصارة لا تلد وإنما تبيض ·

وعلق عليه بعضهم بأنه خلاف ليس فيه كبير فائدة ·

قاتل المدققون : بل هو خلاف جدير بالنظر ، لأنه يترتب عليه اختلاف في تصنيف هذا الكائن المسمى بالبرغوتى ·

قال : ومن عجائب ما رأيت في هذه الديار تيس كبير ، تهابه العيون ، وتخشاه القرون ، يستعين به الجزار في جمع الخراف ، ويمسك له بالسكين ، فإذا حاولت شاة أن تفلت نهق فتتوقف حتى يذبحها الجزار · ويقولون إن هذا التيس يأكل الإدام ·

قال : ومن عجائب ما رأيته في هذه الديار حمار كالإنسان يسير على قدمين ، إذا فتح فمه نهق ، وإذا نهق ضرط ، وإذا ضرط اختنق ، وإذا

اختنق لا يفيق إلا إذا ضرب بمقرعة عوراء حمراء . يقولون : وقد جربوا ضربه بمقارع ذات ألوان : بيضاء وسوداء وصفراء فلم يفق .

قال : ومن عجائب هذه الديار كائن جسمه جسم فيل ، ورأســـه رأس دجاجة ، يبلع الأرنب حيا ، ويتقرب الخلق إليه بالثور الكبير فيحيلـــه إلـــى أرانـــب يبتلعها ، ويقولون إن الخراف تجتمع حولـــه ، يحدثـــها فتســـمع وتفهم . فسبحان الله القادر .

قال : ومن عجائب هذه الديار كائن ين الكلب والحمار ، رأســـه رأس فار ، ليس له أنف ولا لسان ، إذا أراد أن يتكلم خرج الصوت من اســـفله مصحوبا بغبار كريه الرائحة ، وقانا الله منه .

قال : ومن عجائب هذه البلاد أن ذكورها تقف على قدميـــن لكـــن لا تستطيع المشى والحركة ، وترى بعيون لكن لا تبصر ، ولها ألسن وشـــفاه لكن لا تستطيع الكلام ، فهى صماء بكماء عمياء كسيحة ، هكذا ، خلقة الله سبحانه وهو العليم بما خلق كيف خلق .

قال : ومما يحكى عن هذه الذكور أن الصغير فيها يولد كالنخلة ، وأن الكبير فيها ينبت له بالبلوغ قرنان يكبران كلما تقدم به العمر ، رأيت واحدا منها وقرونه ملتفة تتجاوز الرجل طولا ، يخاطب صرصارا بين يديه لا أراه ويقول له : يا سيدى ومولاى وولى نعمتى وتاج راسى .

قال القمى : وهذا النوع قـــد ذكـــره المقريـــزى والقفطـــى وصـــاعد والجبرتى والفيومى والأندلسى والنابلسى والحمصى وما لا يحصى عددا من العلماء .

وأيده البيروتى ، بالمثناة الفوقية .

قال في سلك الدرر في أخبار من عبر . وما زال هذا النوع موجـــودا حتى يومنا هذا ، وقد قابلت منهم عددا لا يحصى كثرة .

قال المحققـــون : وفيمـــا ورد مع كثرته نظر ، إذ كيف يتكلم وهـــو أبكم .

قال المدققون ، لقد تجاوزوا بنظرهم حد الأدب مع الله ، وهو سبحانه لا يعجزه شيئ في الأرض ولا في السماء ٠ فربما نفخ فيه القدرة مع خلقه أبكم على أن يتكلم ، وهو سبحانه أدرى وأعلم ، فقد خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق عيسى عليه السلام من غير أب لكن بأم ، وأقدره على أن يتكلم في المهد صبيا ، فإياك إياك ، فقف أيها العقل عند منتهاك ٠

قال ابن الكاتب : حدثنى أبى رحمه الله قال : حدثنا أبو عثمان قال ونحن جلوس في حلقة العلم بين الضحى والظهر رحمه الله : قد والله وقفت ، فما عرفت، ولا قدمت ولا أخرت ، والحمد لله المنعم بالجليل ، فنعمه لا تحصى ، وآلاؤه لا تستقصى ، ومنها الجهل بالحال ، في بعض الأحوال ، والله أعلم بالمآل ٠

وقد حدثنى أهل العلم من هذه البلاد بأن عندهم نوعا من الكلاب إذا سمع عواء الذئب وجل ، واشتد خوفه ، وارتعدت أرنبته ، وزاغت عيناه ، ووضع رأسه بين رجليه ، ونام يغمض عينيه ويسد بقائمتيه أذنيه ، لا يخرج مما هو فيه حتى يأكل الذئب الغنم ، فإذا ذهب الذئب عاد نباح الكلب يملأ الآفاق ٠

قال هؤلاء العلماء وهذا النوع من الكلاب مبتور الذيل ، فهو لا ذيل له خلقة ، منذ ولد ٠

قال بعضهم : وبعضهم يطول عمره حتى يتجاوز الثمانين ٠

قال ابن الخياط : ولقد عنانى في مرحلة من الطلب طلب أخبار هذا النوع من الكلاب ، فرحت أتقصى أمرها ، لأعرف أحوالها ، وأجمع آثارها، وقد جمعت من ذلك ما ينوء بحمله الركبان ، ويحتاج إملاؤه إلى زمان ، لكن الهمة فاترة ، والنفس حائرة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ٠

قال الكركى : خسر العلم والله شيئا كثيرا مما فعل ابن الخياط ٠ وأيده الصابونى ٠

قال الصفدى : ولقد قرأت في بعض الكتب القديمة أن هذا النوع من الكلاب إذا امتد عمره ، وطال أجله ، تحول ، فإذا سمع صوت اللص عقر أهل الدار ، لم يترك منهم أحدا إلا أصابه بكلم ٠

قال القليوبى : وسلالة هذا الكلب باقية لم تنقطع حتى يومنا هـذا ، ولا أظنها تنقطع إلى يوم الدين ٠

قال ابن الدهان : وهذا تجرؤ على الله وقانا الله منه ، فإياك وإياه ، فإن لك الأولى وليس لك الثانية ٠

واختلف المحققون في تفسير العبارة ، وبيان المراد بالضمائر ، كما اختلفوا في المقصود بلفظتى الأولى والثانية ، والكلام في هذا يطول ٠

قال ابن جبير ، ولا داعى إليه في هذا الموضع ٠

قال التاريخى : وكان مما سمعته من الأعاجيب في هذه البلاد أن الفأر الكبير يمشى في الطرقات فتهابه القطط السمان ، فإذا نظر الفأر إلى القط تيبس في مكانه لا يبرحه حتى يصرف بصره عنه ٠ ويقولون إن هذا النوع من الفئران حين يواقع أنثاه يحملها على أن تضع فيه ذيلها ٠ وهو من عجيب خلق الله ٠

قال : ومن عجيب ما رواه لى بعض أهل هذه البلاد ما يحكونه عن عيد الثور ، وفيه يختارون ثورا كبيرا يلبسونه عمامة ، ويعلقون عليه الشارة ، ويخرجون به إلى السوق ، فيخور خوارا عظيما يصم الآذان ، ويفزع الإنس والجان ، ولا يتوقف حتى يمد له السماط ، فيسير عليه ، وقد يبول بين يديه ٠

قال : ومن اللطائف المأثورة أن أحدها وهو في السوق يخور ، شاهد الجزار ، فانكمش وتحول إلى فار ، سارت بذكره الركبان ٠

قال ابن التاريخى : وشاء الله أن أصل سالما إلى دار السلام ، وتحريت البحث عن الكتبى الهمام ، إلى أن وجدته في سوق يقال لها سوق العطارين ، وهو قريب من سوق النحاسين ، فذهبت إليه ، وجلست بين

يديه ، وطلبت منه أن يطلعني على ما عنده بشأن اختبار الترقى ذى الدرجات ، الذى شاع ذكره ، وانتشر أمره ، وبعد تمنع وإباء ، ولأى ورجاء ، سمح لى أن أطلع عليه ، على أن يظل ممسكا له بيديه ٠ وقد وجدته في بضعة أوراق حال لونها ، وتمزقت أطرافها ، أظنها من ورق الدشت ، الذى يقولون له الشفت ، وقد قرأت فيها ما نصه :

هذا ما كان يختبر به الخاقان الأكبر إخلاص رجاله المنتشرين في أصقاع الأرض ، وعملائه في الثغور ، وهو اختبار الترقى ، الذى شاع بين الناس أمره ، وانتشر بين القاصى والدانى خبره ٠

وفي الدرجة الأولى يقول الخاقان لمن يلتحق بخدمته : من واجبك أن تحلم ، ومن واجبك أن تعمل ، ومن واجبك أن تطلب العون منى ، ومن واجبى أن أقدم العون لك ٠

وفي الدرجة الثانية يقول الخاقان لمن استمر في خدمته : من واجبك أن تحلم ، ومن واجبك أن تعمل ، ومن واجبك أن تطلب العون منى ، وليس من حقك أن تفرض على أن أعينك ٠

وفي الدرجة الثالثة يقول الخاقان لمن يتطلع إلى الترقى : من واجبك أن تحلم ، ومن واجبك أن تعمل ، ومن حقك أن تطلب العون منى ، ومن واجبى أن أحرمك معونتى ٠

وفي الدرجة الرابعة يقول الخاقان لمن يريد مزيدا من الترقى : من واجبك أن تحلم ، ومن واجبك أن تعمل ، وليس من حقك أن تطلب العون منى ٠

وفي الدرجة الخامسة يقول الخاقان : من واجبك أن تحلم ، ومن حقك أن تعمل بدون إذنى ٠

وفي الدرجة السادسة يقول الخاقان : من واجبك أن تحلم ، وليس من حقك أن تعمل بدون إذنى ٠

وفي الدرجة السابعة يقول الخاقان : من حقك أن تحلم ٠

قال : ولقد رأيت بهامش إحدى هذه الأوراق تعليقة تقول : لقد فات المؤلف غفر الله له أن يذكر الدرجة العظمى ، التى كانت درجة المقربين ، الذين يسعون بين يدى الخاقان ومن خلفه ، ويملئون له الأكواب بالشراب ، ويحملون عنه سيفه والكتاب ، وهى الدرجة التى يقول فيها : ليس من حقك أن تحلم إلا بإذنى .

قال المهتدى : ولقد رأيت بعض الذين رقوا إلى هذه الدرجة لا ينامون ، خشية أن يحلموا بما لم يأذن به الخاقان الأكبر .

قال ابن العماد ، وحقيقة الأمر أن هذه الدرجات قد اكتملت في عهد الخاقان الابن ، المشهور بالمجنون ، أما نشأتها فقبل عهد هذا الخاقان بزمان طويل .

قال ابن البورى : وكان المجنون نفسه يحلم ، ويرى الرؤيا في منامه ، فيستيقظ يطلب المفسرين من أقاصى البلاد ، فإن كانت الرؤيا خيرا حسب ما يقول المؤولون تقرب إلى خالقه بقطع رقاب مائة وواحد من الرجال ، وأرسل رؤوسهم على أسنة الرماح إلى أصفيائه ، وانبسطت أساريره ، وظهر على الناس ضاحكا يتبختر ، يرتدى الرباط الأحمر ، يلوح لهم بأصابع كلبه الأزعر ، ومن فرط سعادته قد يتعثر . وإن كانت شرا في تأويلهم اجتمع وأمر فجفت الأنهار ، وخربت الديار ، وصار الواحد من رجاله في كل صقع يكلم نفسه بالليل والنهار ، ويجدّ في طلب القتل ، ويرسل الرءوس إليه ، حتى يتجمع له منها العدد العظيم الذى لا يحصى ، ويظلوا يسترضونه بالرءوس حتى يهدأ ، فإذا هدأ عاد وأمر بضرب رقاب المائة والواحد ، وأرسل رءوسهم إلى أصفيائه .

قال الخليلى ، وأيده القدسى والغزى والحلبى والنابلسى والقلقيلى ، وكان الناس يرقبون الرسل فإذا كانت ذاهبة بالرءوس إلى الخاقان جدوّا في الهرب ، وسعوا في الاختفاء ، حتى إن الواحد منهم يظل المدة المديدة دون

طعام أو شراب ، وإذا كانت الرءوس مرسلة من الخاقان إلى رجاله ظـهروا وقد علتهم البهجة وهم يدعون للخاقان الأكبر بطول العمر .

قال الهندى : ومن حكايات هذا الخاقان العجيبة أن واحدا من الرعيـة لم يكن يحسن الخطابة قام مرة فخطب ، فنسى الدعـاء للخاقـان ، فـأمر السلطان رجاله أن يمزقوه شر تمزيقة ، حتى يكون عبرة ، وجمعوا أهـل الشورى من البلاد يفكرون ، كيف إياه يمزقـون ، وظلـوا أيامـا طويلـة يتداولون ، وكلما رأوا رأيا جربوه في واحد حتى يتأكدوا من صـواب مـا يرون ، وقد قتلوا إلى يومنا هذا الآلاف المؤلفة ، التى لا تحصـى عـددا ، وما زالوا حتى الساعة يجتمعون ، يفكرون ويجربون ، ومـازال صاحبنـا حيث كان ، ينتظر ما يجود به الزمان .

قال النابلسى : وكان شيخنا الهندى قد أملى علينا هذا بعد نحو سـنة من ابتداء الأمر ، وها نحن أولاء بعد عشر سنوات وما زالوا إلى اليـوم يجتمعون ، يفكرون ، ويجربون ، ويقتلون ، وبـآلاء الخاقـان يتحدثـون يسبحون وما زال الرجل حيث كان ينتظر أحداث الزمان . والله أعلم بمـا كان .

- ٢٢ -

وكزه في كتفه فأيقظه وهو ينبهه إلى سقوط الكتاب ، انحنى ليلتقطـــه وهـــو يعتذر :

- آسف جدا ، عينى غفلت لحظة .

ضحك جاره ضحكة صافية وهو يقول بمودة :

- لحظة إيه ياعمنا ، دا انت بقى لك ساعة بتعزف .

هل أراد أن يغير الحديث وقد أصابه الخجل ، قال مرتبكا :

- هو الاستطلاع خلص .

- أوه ، من زمان .

تساءل محاولا أن يفهم ما يدور أمامه :

- إمال إيه اللى بيعملوه ده ؟

أجابه وهو يفتح كتابا صغيرا من كتب الجيب والمسامرات :

- الوقت بيعملوا المرحلة الثانية من التصويت .

حمل صوته دهشة وهو يتساءل من جديد :

- تصويت ! تصويت إيه .

رد جاره وفي صوته لا مبالاة :

- أولا دى بداية المرحلة الثانية من التصويت ، في المرحلة الأولى كان التصويت حول سؤال هل يتم اختيار المندوبين بالانتخاب واللا بالتعيين ، طبعا الناس قالوا بالانتخاب . وانتهينا لكده بعد ثلاث خطوات .

- بس أنا ما صوتش لسه .

رد عليه مهونا :

- مش مهم ، أنت كنت نايم ، ممكن يعتبروه عذر شرعى .

- طيب أنت صوّت لى .

- ما تقلقش . إذا كنت أنا نفسى ما صوتش . هم عارفين بيعملوا إيه ومش عاوزين يتعبونا .

-طيب في إيه بعد كده ؟

- الوقت التصويت في المرحلة دى وله خطوات ، الأولى حيخلوا التصويت حول النسبة العامة ، هل تكون عشرة في المائة واللا أقل واللا أكثر ، والثانية حيبقى التصويت حول التحديد النهائى إذا كان أقل من العشرة ، والثالثة حيبقى عشان التحديد النهائى للأكثر من العشرة .

تساءل بسخرية :

- مفيش رابعة .

رد بنفس السخرية :

- رابعة بس ، إذا كانوا بيقولوا إن المرحلة دى لوحدها فيها سبع خطوات.

هل أدهشه العدد فتساءل :

-هو فيه كام مرحلة ؟

أصاب جاره باستسلام غير المبالى :

- المفروض تسع مراحل ، كل مرحلة لها خطوات كثيرة ، ما تعدش .

وسكت لحظات ليضيف :

- إن شاء الله يعملوها خمسين ، هو احنا خسرانين حاجة ؟

هل أحس بأن جاره تضايق فحاول التخفيف عنه :

- يا شيخ سيبك ، النوم أحسن ٠

أجابه باقتضاب :

- خلاص ، النوم طار ٠

- طار ازاى ، دا احنا لسه قدامنا وقت بدرى ، هو احنا قدامنا غيره ٠

ولما رآه صامتا كأنما يفكر تابع وهو يمد يده بالكتاب الصغير :

- طب خد اقرا شوية في الفوازير ٠

لم يمد يده فاستمر يغريه :

- الفوازير لذيذة جدا ، ما عندكش فكرة ٠

ظل صامتا فواصل إغراءه :

- دى حتضيع الوقت كويس ، بتاخد تفكير عشان تحلها ، حتسليك فعلا ، صدقنى ٠

هل خشى أن يكون قد بالغ في الوقت الذى يستغرقة حلها فاستدرك :

- على العموم هى مرتبطة بالثقافة العامة ، وأنت باين عليك مثقف ، ويمكن ما تاخدش منك وقت طويل ٠

مد يده فأمسك بالكتاب الصغير وأخذ يقلبه في يده محتقرا دون أن يفتحه ٠

أضاف جاره شارحا :

- خد بالك ، فيه أسئلة ، وفيه احتمالات لكل سؤال ، لكن ممكن الإجابة الصح ما تكونش في أى احتمال منها ٠

نظر إليه مستغربا فقال باسما :

- ما هو دا جزء من حل الفزورة ٠

بدأ يتصفح الكتاب ، ولكنه لم يضحك ، ولم يأته النوم ، هل استغرقه حل الفوازير :

* * *

- حط الفاس في الراس جوه الكراس ، وادا تمام ، وعملها ونام .

السؤال الأول : فاس إيه :

الاحتمالات : صاروخ برشام - محشى كرنب - طشت الغسيل - حذاء العسكرى .

السؤال الثانى : كراس إيه .

الاحتمالات : الدفتر - بدلة الرقص - قبة المتولى - حلق خالتك بهية

السؤال الثالث : رأس إيه

الاحتمالات : راس بتلو - راس خروف - راس دبوس - راس حاجة تانية .

السؤال الرابع : مين اللى عملها .

الاحتمالات : عم حنفى الطرشجى - الشيخ الإمام - خالتى رتيبة - الواد بلية بتاع الجامعة .

* * *

- اسم النبى حارسك وصاينك ، هو بعد اللى انت شفته ترجع وتقول لسه دول موجودين :

السؤال الأول : من القائل ؟

الاحتمالات : العجل فى بطن أمه - عم حمص بتاع اللب - خالتى شمعة - عم سمعه .

السؤال الثانى : ما المفقود ؟

الاحتمالات : الشبشب - المقشة - شنب المعلم - حاجة ثانية خالص .

* * *

- عليه العوض ومنه العوض ، ما خلاص خلصوا من زمان .

السؤال الأول : من القائل ؟

الاحتمالات : العرضحالجى - عم حسين بتاع الفول - عمك محمود بتاع حمص الشام - خالتى أم إيزيس .

السؤال الثانى : ما المفقود ؟

الاحتمالات : الزير - الكوسة - العجل في بطن أمه - كائن أسطورى

* * *

- بصراحة نفسى قبل ما أموت أشوف ولو واحد بس من النوع دا ٠

السؤال الأول : من القائل ؟

الاحتمالات : السيد الكهربائى - أم سليم الغسالة - الحاج سعد فراش المدير العام - عمك نجيب ٠

السؤال الثانى : ما المفقود ؟

الاحتمالات : الخاتم - الطرطور - العجل أبو راسين - حاجة تودى في داهية ٠

* * *

- اللى ما تقدرش تضربه لاعبه وان ما عرفتش ادعى عليه وعيط :

السؤال الأول : من القائل ؟

الاحتمالات : كابتن عوكل مدرب حارة الوسط - عبد السلام النابلسى - مارادونا - رونالدو ٠

السؤال الثانى : من المقصود ؟

الاحتمالات : لاعب خط الوسط - بواب العمارة - سلامة الجزار - يحيى الكاتب ٠

* * *

- النوع دا نادر جدا ، تصور مفيش عندنا منه ولا واحد

السؤال الأول : من القائل ؟

الاحتمالات : الدكتور عبدون - كامل الشناوى - أبو شنب - الحاجة تحية ٠

السؤال الثانى : ما المفقود ؟

الاحتمالات : الحمار الرقاص – ذكر الوز – قلم العرضحالجى – فحل البصل ٠

* * *

– البغل الرقاص راسه تنداس ويتعمل منها مداس ٠

السؤال الأول : من القائل ؟

الاحتمالات : رئيس الكهنة – المعلم كفتة – الشاويش صلاح – الست أم حلاوتهم ٠

السؤال الثانى : المقصود بالبغل الرقاص ؟

الاحتمالات : البغل الاسترالى – الفيل الأمريكى – الثور الانجليزى – الحمار الافريقى ٠

* * *

– ما دام الإيدين تنباس تبقى الراس وسخة ٠

السؤال الأول : من القائل ؟

الاحتمالات : الست أم فايزة – عم جابر السواق – المقدس فلتس – الأسطى حمزة ٠

السؤال الثانى : معنى بوس الإيدين ؟

الاحتمالات : المحبة – اللى فيه القسمة – نخ وطاطى – ادى له وادعى عليه ٠

السؤال الثالث : المقصود بالرأس ؟

الاحتمالات : رأس المعلم كبوريا – رأس الولد بلية – رأس الكتكوت – رأس الحمار اللى انت عارفه ٠

السؤال الرابع : سبب الوساخة ؟

الاحتمالات : متعاصة عسل – متلغمطة طين – عليها دم – متنيلة بنيلة

* * *

- الزنبلك ملك ، والمسمار قرطاس •

السؤال الأول : من القائل ؟

الاحتمالات : السباك - الكهربائى - النجار - المعلم ماهر •

السؤال الثانى : ما المقصود ؟

الاحتمالات : ما تدقش - زى ما ترسى دق لها - خليك حدق وافهم - جاجة تانية إذا عرفتها ماتقلهاش •

* * *

- الكلب ياكل ، والحمار تحط عليه البردعة •

السؤال الأول : من القائل ؟

الاحتمالات : الجنرال صفى الدين - المعلم علاء الدين - الشيخ جمال الدين - الأسطى بهنس •

السؤال الثانى : المقصود بالكلب ؟

الاحتمالات : كلب البوسطجى - ديب البرارى - وحش الجبال - المعلم ابن المعلم •

السؤال الثالث : المقصود بالحمار ؟

الاحتمالات : الواغش - اللى ما يفهمش - اللى يفهم ويسكت - الحمار اللى انت عارفه •

- نوعان : نوع اتولد ونوع ما تولدش - النوع اللى تولد ما عش ، والنوع اللى عاش ماتولدش • وكله بالقدرة •

السؤال الأول : من القائل ؟

الاحتمالات : الشيخ عبد الفتاح - المعلم كراوية - الحاج سلطان - الأستاذ بركة •

السؤال الثانى : المقصود بالنوع الأول ؟

الاحتمالات : ناس ماتوا - الشهيد جمال - الطفلة إيمان - أطفال بحر البقر •

السؤال الثالث : المقصود بالنوع الثانى ؟

الاحتمالات : نبوت الغفير - بندقية عمك العسكرى - طيارة المعلم خربوش - سك على دى ٠

السؤال الرابع : معنى القدرة ؟

الاحتمالات : قدرة القول - إرادة ربنا - ما تستعجبش - آدى حال الدنيا ٠

* * *

- الكلب وارث العض عن ابوه والحمار اللى يخليه يعضه ، إن ما قدرش يرفصه ينهق ، ويبقى حمار صحيح اللى لا يرفص ولا ينهق ٠

السؤال الأول : من القائل ؟

الاحتمالات : الأستاذ الهلالى - الدكتور سيف - مدام فريدة - أبونا جرجس ٠

السؤال الثانى : المقصود بالكلب ؟

الاحتمالات : الكلب ابن الكلب - كلب القرداتى - واحد عضاض - ماتروحش بعيد لتروح في داهية ٠

السؤال الثالث : المقصود بالحمار ؟

الاحتمالات : أبو بردعة - العبيط - التور اللى شايل الدنيا على قرنه - بقرة حاحا ٠

* * *

- وقد شاءت إرادة الرب الحكيم أن أعيش في كنف أعظم الرجال ، فقد رأيت القياصرة يتسلسلون ، فقد صاحبت بفضل الرب القيصر الأكبر نيقولا الأول وعرفت بفضل الرب القيصر الأوسط نيقولا الثانى ، وغمرتنى بفضل الرب عطايا القيصر الأصغر نيقولا الثالث ، وأضرع إلى الرب أن أستمتع بعطايا نيقولا الخامس وهدايا نيقولا السادس حتى أموت مستريحا ٠

السؤال الأول : من القائل ؟

الاحتمالات : ليو تولستوى - رابندرانات طاغور - محمد إقبال توفيق الحكيم

السؤال الثانى : لماذا لم يذكر القيصر نيقولا الرابع ؟

الاحتمالات : سقط سهوا - ما خدش باله - عامل مش واخد باله - ما تبقاش لحوح وبايخ •

* * *

- في اليوم السابع والثمانين من الشهر الخامس والستين من العام الثانى والثمانين بعد الميلاد المجيد كان ما يزال يجرى يسابق ريحا حمراء ، قابلته ريح سوداء فقبس منها قبسة كوّر عليها قبضته ، ثم نفخها فوق المدينة فصار الناس نياما ، ومن يستيقظ منهم يعود إلى بطن أمه كما خرج منها ، وكثير منهم لا يستيقظون خشية ألا يجدوا أمهاتهم •

السؤال الأول : من القائل ؟

الاحتمالات : هيرودوت - ابن إياس _ المقريزى - الدكتور عصفور بتاع المحاكم •

السؤال الثانى : المقصود بالرياح ؟

الاحتمالات : العواصف الشمسية - الأعاصير الكونية - ناس مش زى الناس - كفاية كده وحياة أبوك لتروح في عين الشمس •

- ٢٣ -

في ساعات المساء المتأخرة قطعت الإذاعات والفضائيـات برامجـها العادية لتذيع نبأ عاجلا جاء فيه أن الاتصال قد انقطع بالطائرة وهـى فـي منطقة تعد الملاحة الجوية خطرا فيها يطلق عليها المثلث الأوسط ، وقد ورد في الأنباء الأولية أن الأوامر قد صدرت في مختلف الدول المحيطة بالمنطقة لإعلان حالة الطوارئ بين قواتها البحرية والجوية تمهيدا للبحث عن الطائرة التى اختفت من شاشات الرادار ، والكشف عن أسباب انقطاع الاتصال بها ٠

وفي وقت لاحق ورد في خبر عاجل نقلا عن مصدر مسئول لم يشـأ الإفصاح عن اسمه بمركز المتابعة الأرضية للأقمار الصناعية في فلوريدا أن أجهزة التنصت على القمر الصناعى اكس ١١٠٧ قد سجلت ما يشبه أصوات انفجارات في المنطقة التى كانت تطير فيها الطائرة ، وعلى نفس الارتفـاع الذى كانت تطير فيه ٠ ولم يحدد هذا المصـدر المسـئول مـا إذا كـانت الانفجارات المشار إليها صادرة من داخل الطائرة أو من خارجها ٠

وقد أذاعت وزارة الدفاع الأمريكية تكذيبا فوريا لهذا النبأ ، وذكرت أن مركز المراقبة الأرضية الذى ورد ذكره في الخبر لم يصدر أى بيانات بـهذا الشأن ، وقال الناطق الرسمى باسم الوزارة إنه لا علم لديه بما تـردد عـن

انفجارات في المنطقة التى كانت تطير فيها الطائرة ، وأكد أن وزارة الدفاع لم تجر أى تجارب صاروخية في هذه المنطقة طوال الوقت الذى كانت الطائرة تطير فيها في المنطقة ٠

ومن ناحية أخرى حاول عدد كبير من المراسلين الحصول على بيان رسمى بهذا الخصوص من القاهرة ، وهى العاصمة التى يفترض أن الطائرة كانت متوجهة إليها ، وخصوصا أنه تبين من المعلومات الأولية التى أذيعت في واشنطن أن بعض الشخصيات الهامة كانت على متنها ، لكن المسئولين لزموا الصمت ، ولم يذع التليفزيون المحلى والإذاعات المحلية أى أنباء حول هذا الموضوع ، وبقيت تواصل برامجها العادية ، ونظرا لأن الوقت متأخر بالتوقيت المحلى فلا يتوقع صدور أى بيان رسمى في الموضوع قبل ظهر الغد ٠

وقد تجول عدد كبير من المراسلين المقيمين في المدينة لمعرفة ردود الأفعال المباشرة عند المواطنين العاديين ، وقد لاحظوا أن الأوضاع مستقرة، وأنه لاتبدو أى بوادر تدل على احتمال وجود توتر أو إخلال بالأمن ، والمواطنون يمارسون في العاصمة التى يقطنها حوالى عشرين مليونا حياتهم بشكل طبيعى ، وإن شهدت بعض المناطق الشعبية تجمعات صغيرة في شوارعها الجانبية الضيقة ٠ وكانوا فيما يبدو يقيمون الصلوات للدعاء بسلامة الطائرة ، ويرددون عبارات الدعاء بحرارة مستخدمين كلمات مثل : بالسلامة، سكة السلامة ، مع السلامة والقلب داعى لك - وهى الكلمات التى يشيع بين المواطنين استخدامها في مثل هذه المناسبات ٠ وأخذ بعضهم يوودد بحزن واضح كلمات : راح راح ، وهو مقطع من أغنية حزينة لمغن مشهور ٠

وقد شاهد بعض المراسلين أحد المواطنين يبكى في منطقة وسط البلد ، وقد تجمع الناس حوله يحاولون تهدئته بعبارات مثل اللى خلف ما متش ، وقد سألنا بعض خبراء التحليل النفسى الجماعى في السى آى إيه عن هذه

العبارة فأفاد بأن الشعب يتطلع إلى الاستقرار ، وأنه لن يسمح بأى شيئ يهدد المسيرة ٠

من ناحية أخرى حاول مندوبو بعض الفضائيات الوقوف على رد الفعل الفورى للمواطنين البسطاء ٠ وأذاع مندوب السى إن إن حوارا مع عامل مكتب المحطة بالقاهرة ، قال فيه إنه يدعو الله أن تعود الطائرة سالمة ، وإنه سيصلى من أجلها ، وأنه واثق من أن الله سيقبل صلاته لأن الولايات المتحدة ستبذل جهدها لإنقاذ الطائرة ٠

وسأل مراسل آخر عم صميدة ، وهو نجار يعمل بالليل بائع صحف في منطقة وسط البلد عن رد فعله فرد بعبارة : أهو شنبر ودق ، وخد بعضه وزق ، طب كل دا كان ليه ٠ وأخذ يغنى مقطعا من أغنية معروفة وهو يجرى بين السيارات يبيع صحفه للساهرين العائدين إلى منازلهم ٠

وبدأت الرواية الجديدة ٠

*　*　*

ثلاثيـة العشق

* *

* الموت عشقا .
* العاشق ينتظر .
* اشجان العاشق .